الحيّ الخطير

محمد بنميلود



الحيّ الخطير

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

محمد بنميلود

الحيّ الخطير



الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-6-14425-946-7

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114

هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13–5290، لبنان

هاتف: 901-218-1-961+
email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثانية، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

"الخروج من البيت مغامرة خطيرة."

فرانز كافكا

ما العمل؟

في جيبي الآن علبة سجائر تحوي سبع عشرة سيجارة، عليها أن تكفيني طيلة هذه الواحد وعشرين يوماً التي سأقضيها كاملةً في هذه الزنزانة الانفرادية، بمتوسط سيجارة واحدة فقط في اليوم تقريباً دون ساعة شمس ودون كلام أو اختلاط، ودون أي شيء قبل العودة من جديد إلى زنزانتي العادية.

لقد تمكنت منه كما تمكن مني، جبهتي تنزف الآن لكنني لا أحسّ بها كثيراً بسبب الأدرينالين، كما أن عينه هو أيضاً قد انتفخت في ثانية وتنزف وربما لن يستطيع أن يرى بها شيئاً في المستقبل، أتمنى ذلك حتى يعرف الآخرون أيضاً أن الاقتراب مني شبيه بالاقتراب من العمى.

هذه الغرفة مظلمة وبلا نافذة، أعتقد أن هذا لصالحي الآن، إذ طالما تمنيت أن أخلو ساعةً إلى نفسي هكذا دون أن يقطع خلوتي أحد أو شيء، وها هو السجن يمنحني الآن واحداً وعشرين يوماً كاملة بلياليها ونهاراتها وعزلتها الإسمنتية الحديدية الصارمة من أجل أن أخلو بالكامل بنفسي، الشيء الذي لم تمنحه لي الحرية أبداً.

سأحتاج إلى بعض الوقت فقط، لمقاومة هذا الألم الذي بدأ يشتدّ الآن في جبهتي وفي رأسي وداخل أعماقي بعد أن بدأ جسمي يعود إلى بروده وهدوئه المعتاد. أعرف أنها ليست المشاجرة الأولى التي عليّ خوضها في هذا السجن ضد أحد المساجين، ولن تكون الأخيرة، لكنني خسرت كلّ شيء في الخارج حيث الشمس والشساعة والحرية، ولم يعد لديّ شيء أخسره هنا. مثلما ليس لدى جرذ محاصر شيء يخسره.

يحاولون الآن كسري، إخضاعي، تطويعي، بين هذه الجدران، كما استطاعوا دائماً كسر وإخضاع وتطويع ملايين الناس الذين يذهبون كلّ يوم مطأطئين رؤوسهم في الشوارع، خانعين راضين بالقسمة والنصيب، مرعوبين من القانون ومن الملك ومن الله. لا يعرفون أني مثل شظية قنينة خمر محرّمة مقذوفة على رصيف مترب، مدببة الحواف، وأن كسري لا يزيد ويضاعف سوى عدد الشظايا المدببة والحواف الحادة الجارحة لكلّ من يفكر في بلعها أو مجرد الاقتراب منها. لقد ولدت مكسوراً منذ البداية، والذي حدث كان يجب أن يحدث، دون ندم على شيءٍ أو توبة أو طلبٍ للغفران من أحد. بل أكثر من ذلك إني مستعد لتكرار كل شيء من البداية برعب مضاعف وإصرار أكبر على الجريمة، كما أني قد بدأت أيضاً في التخطيط للهروب من هذا السجن، من قبضة هذه العدالة التي لا يطبقونها إلّا عليّ وعلى أمثالي من الحثالة. فليمسكوا إذن في قضيبي الذي سينتصب كمطرقة القاضي داخل فرج هذه الزنزانة المثيرة وأنا أستمني ليلاً متلمساً بيدي جدرانها الرطبة متخيلاً أجمل عارضات

الأزياء تشاركني هذا السجن بجسدها الرشيق العاري، هارباً من هنا بخيالي، تاركاً لهم جثتي فقط كي يحرسوها. فليمسكوا جميعهم جيداً في قضيبي، هذا هو كلّ ما لديّ لأقوله لكل من يعتقد نفسه مطبقاً للقانون، ساهراً على العدالة والأخلاق والنظام، فليسهر أيضاً على مصّ قضيبي.

أعرف أن لا أحد سيسمع هذه الكلمات الحانقة التي أردّدها الآن فقط داخل أعماقي دون صوت، لكن واحداً وعشرين يوماً كاملةً في الظلام في سجن داخل السجن لن تمرّ بسرعة، بل قد تبدو أطول من الستةَ عشرَ عاماً التي عليّ قضاؤها كاملةً بين الجدران والزنازين والحراس وحثالة المساجين.

واحد وعشرون يوماً، أو ستةَ عشر عاماً، أو حتى قرنٌ، لا يهمّ، سأصمد. على الأقل لن يكون السجن أخطر من الحيّ الذي ولدت فيه، بل أشعر حقاً أني بأمان هنا، وأني لن أُقتل أبداً طيلة هذه الواحد وعشرين يوماً وطيلة هذه الستةَ عشر سنة إن عشتها كاملةً هنا بل أسوأ ما قد يحدث لي هو جرح تافه كهذا على جبيني، فالدولة تحرسنيْ هنا جاهدة من انتقام عصابات الحشيش عوض أن تسجنني كما يبدو ذلك في الظاهر، وأكثر من ذلك تقدم لي طعاماً وسكناً وباباً يغلق بالمزاليج والأقفال وحراساً، وهذا في حقيقة الأمر بذخ ما بعده بذخ يحفز داخلي الآن ضحكةً مجلجلة عملاقة.

شكراً للدولة إذن، شكراً للملك الذي تصدر أحكام السجن باسمه، شكراً للسجانين الذين يتقاضون رواتب هزيلة ويقضون حياتهم البئيسة كاملةً في السجن أكثر مما يقضيه المساجين، إذ كل

مرة يفرج عن سجين بعد انتهاء مدة حبسه بينما يظل السجان في السجن إلى أبد الآبدين. وطبعاً، شكراً، أيضاً، لله الذي أدخلني في هذه التجربة ومنحني كفاف يومي من الخبز الجاف واليقظة طيلة حياتي وأيضاً داخل هذا السجن.

شكراً للجميع. ها أنذا على ما يرام في هذه الزنزانة الانفرادية، وقد انضبطت رؤيتي مع عتمتها، إلى درجة أني أستطيع الآن رؤية بعض رسوم وكتابات السجناء الذين عبروا من هنا على جدرانها، وها قد بدأ الألم على جبيني بالهدوء ثم الدغدغة ثم التلاشي، واعتدل مزاجي اعتدالاً كاملاً. لذلك سأشعل سيجارة أدخنها كاملة دون تقتير احتفالاً بهذه المناسبة العظيمة، مناسبة فقئي لعَين أحد المساجين المكرّشين الوشاة.

في الماضي كانت حربي ضد أبناء حيي من أفراد العصابات، أو بالأحرى كانت حرباً مفروضة عليّ، ليس من أجل الانتصار أو تحقيق شيء، بل فقط من أجل الدفاع عن نفسي، ففي كل الأحوال حين تجد نفسك متورطاً عليك شحذ سكين كبيرة وإخفاؤها جيداً داخل حزام سروالك. عجزة الحي الحكماء يسمّون ذلك إما قاتلاً وإما مقتولاً.

بعد ذلك، حين يصير تورطك حاصل تحصيل تصير حربك من أجل تحقيق شيء أكبر من تبادل الطعنات المجانية مع الحثالة، شيء ذي أهمية وقيمة وسلطة يخرجك من هناك إلى برّ الأمان، ثروة سريعة تخرجك كالشعرة من العجين من جحيم حي أبي رقراق إلى جنة حي السّويسي أو حي بِيرْ قاسم أو حي الرّياض. تلك الثروة

والدعة والحياة الرغيدة التي لا يحلم بها المجرمون والمتورطون فقط، بل يحلم بها أيضاً حتى المسالمون الخنوعون البعيدون عن المشاكل، يحلمون بها طيلة حياتهم دون بذل السبل الحثيثة إلى تحقيقها، يحلمون بها وهم مضطجعون كالحوامل على أسرّتهم، وهم يتثاءبون، وهم يعبرون الشوارع القائظة في الجفاف الطويل مطأطئين رؤوسهم، وهم يكدّون كفئران في عمل رخيص طيلة حياتهم مقابل بضع ريالات لا تكفي حتى لشراء مشنقة بعد التقاعد أو بعد أن تخونهم بعض أعضائهم فلا يعودون قادرين على الحفر.

يحلمون ولا يتعبون أبداً من الحلم، بل لا تكفيهم أعمارهم الطويلة للحلم فيحلمون أيضاً من داخل أكواخهم وكهوفهم وكَارْيَانَاتِهِمْ بأعمار أطول بعد الموت، بالخلود، بالثروة المجانية والحياة الرغيدة السهلة والقصور الشاسعة في السماء، في الفضاء الخارجي للكون، خلف المجرات والثقوب السوداء والهيولى، حيث الجنة.

لكن، في حقيقة الأمر، لا أحد يحقق تلك الأحلام، لا أحد على الإطلاق يحقق ثروة سريعة من أبناء ذلك الحي والأحياء الأخرى المشابهة المسلحين باليأس والسواطير والجريمة، ولا الخانعين منهم المسالمين المطأطئين، لا أحد أبداً يخرج من الجحيم ليلتحق بالجنة، لقد ولد في الجحيم بجينات الجرذان والصراصير والشياطين، وعليه تقبل مصيره برضا وإيمان وقناعة بالبقاء في الجحيم حتى النهاية.

لقد مات عبد الرحمن ومات رشيد، أو بالأحرى قُتلا. عبد

الرحمن قتلته الشرطة ورشيد قتلته عصابة الشَّعْبَةْ، وأنا نجوت فقط لأصل إلى هذه الزنزانة، ولم نصل أبداً إلى عَكْرَاشْ ذلك اليوم، ولم نجن مالاً، ولم نجتز الشارع الفاصل بين أكواخ حي أبي رقراق وبين فلَلِ السويسي وقصوره.

لقد خسرت كل شيء مقابل لا شيء، وهذه لا يمكن أبداً أن تسمى عدالة ولا يمكن حتى أن تسمى فَرْجًا.

عليّ الآن محاولة فهم ما حدث، ليس من أجل التوبة والتماساً للصراط المستقيم كما قد يعتقدون، بل من أجل التخطيط للهروب من هذا السجن، إما قاتلاً وإما مقتولاً، والانتقام لعبد الرحمن ورشيد ولخالي وأمي ولنعيمة وجنينها ولباقي الحثالة، وعبور الشارع الفاصل بين حي أبي رقراق وبين الجنة، ربما ليس من أجل السكن في تلك الجنة إذ إني لم أعد، كما لم أكن يوماً، صالحاً للسكن فيها، بل من أجل إحراقها، وتلقي رصاصة، بعد ذلك، في صدري، بصدر رحب.

إنهم لا يعرفون أني مختلف كثيراً عن رشيد وعبد الرحمن، يعتقدون أن كل الذين ولدوا هناك متشابهون كأحذية الجنود الذين من دون رتبة، وهذا صحيح، فقد رضعت مثلي مثل عبد الرحمن ورشيد من أوحال النهر، وأكلنا نفس الخبز اليابس ممتزجاً بخراء الفئران، ولم تكن في بيوتنا جميعاً مكتبة ولا مصباح ولا أمل.

لكني قرأت كل الكتب التي تركها خالي، قرأتها دفعة واحدة كمن يشرب قنينة دواء دفعة واحدة ليشفى بسرعة. كَرْتُونَةٌ كاملة من الكتب الممنوعة، كتب الشيوعيين الحاقدة الكثيرة وبياناتهم،

دون أن أكون عضواً في حزب أو تنظيم، أو أن يكون لي هدف واضح من وراء قراءتها، أو أن أكون قد قرأت كتاباً قبل ذلك سوى المقررات الدراسية الابتدائية والإعدادية التي لم تكن مليئة إلّا بأناشيد السنافر والأرانب.

بعد أن اختطفوا خالي الذي لا أتذكر ملامحه جيداً، سوى أني أتذكر مروره من باحة الكوخ إلى الباب كهالة مرة واحدة فقط أو مرتين. كل ما علق في ذهني هو قميصه اللاصق على جسده النحيل وقصة شعره الكثيفة الشعثاء الشبيهة بقصات شباب السبعينيات. كنت صغيرا جداً حينها على فهم ما يحدث، وربما لم أره قطّ في حقيقة الأمر، بل خيالي فقطِ هو الذي خلق عبوره ذاك مرة أو مرتين من أمامي، بل كل ما عرفته عنه ورأيته لاحقاً هو ما حكته أمي باستمرار طيلة سنوات عنه، وصورةٌ وحيدة له بالأبيض والأسود ما برحت حجرها وثيابها يظهر فيها بقميص لاصق على جسده النحيل وقصة شعر كثيفة شعثاء شبيهة بقصات فرقة ناس الغيوان الغنائية.

كان تعلق أمي به كبيراً جداً خصوصاً كلما أحبطها أبي أكثر أو صفعها أو سبّها أو باتت بلا عشاء، تحتضن صورته وتبكي، ثم تحدثني عنه راجية من الله أن أكبر بسرعة لأحميها مثلما كان يحميها. كل إرثها من ذاك الخال الذي كان قد اتخذ بيتنا وكراً له شهوراً للاختباء من الْمَخْزَنْ هو صورته الوحيدة تلك وكرتونة كبيرة مليئة بالكتب والمسودّات والمناشير والبيانات والرسائل، لم تكن أمي تعرف ما تحويه بالضبط، لكنها اعتبرتها إرثها الغالي

العزيز الذي تركه لها أخوها الوحيد لتشم فيه رائحته بعد أن اختفى عن ناظريها فجأةً، مرة واحدة، وإلى الأبد.

كلما غاب أبي تسحب الكرتونة بأسى كبير إلى وسط النَّبْح، تخرج منها الكتب والأوراق وتمسح عنها الغبار بمنديلها ودموعِها متلمسةً روح أخيها بأصابعها بين ثناياها وطياتها وسطورها التي لم تكن قطّ قادرةً على قراءتها.

كانت تحاول مسح الغبار عن الكتب والأوراق كل مرة، بينما كنت أحاول، دون جدوى، أن أمسح دموعها الحارّة عن خدها.

مع الوقت، وبسبب أمي، تكونت في أعماقي عاطفة غريبة تجاه ذلك الخال الغائب، تجاه صورته، وتجاه كتبه الغريبة. أصبح ذلك الخال في تصوري وفي وعيي هو تلك الكتب وتلك الصورة الوحيدة، والذي وطد تلك العاطفة داخل أعماقي ومنحها جذوراً من حديد هو انكسار أمي الدائم، وبكاؤها السريع، وإحساسها الأبدي بالغبن. أصبحت تلك الكرتونة تعني لي شيئاً واحداً: غبن أمي.

كنت أحس ذلك الغبن عميقاً في قلبي وأفهمه دون كلمات ترجمه، أحاول أن أجد طريقة تخلصها منه فلا أجد، أحاول في خيالي أن أعيد لها خالي فلا أفلح، أحاول أن أعثر على طريقة انتقام كافية وشافية لغليلها فأفشل.

أصبحت بعد المراهقة منشغلاً كثيراً بتلك الكرتونة، أكثر من انشغال أمي بها. لم تعد تكفيني حكاياتها عنه، أردت أن أعرف بنفسي من هو، أن أعيد تشكيل صورته وهيئته وحركاته عبر تلك

الكتب التي كان يقرأها، عبر رسائله إلى أصدقائه وعبر رسائلهم إليه، عبر خط يده وبصماته، وحتى عبر الجمل التي كان يسطر عليها إذ كانت تعني له، دون شك، الشيء الكثير.

كان عضواً نشيطاً في حركة ماركسية ثورية انقلابية، مؤمناً حقاً بما يفعل، ورومانسياً إلى أبعد حد، فقد كانت هناك أيضاً رسائل غرامية يتبادلها مع فتاة ماركسية هي أيضاً كانت رفيقته في الجامعة اسمها تُورِيّة؛ الاسم الوحيد الذي كان مكتوباً دون تشفير إضافة إلى اسمه في بعض رسائلها إليه التي لم تكن سياسية مْجِيدْ.

كانت الكرتونة مليئة برسائل من مجهولين موقعة كل مرة بحروف دون أسماء بينما كانت مسودات رسائله هو إليهم موقعة دائماً بهذه العبارة: ما العمل؟

كانت هناك أيضاً مناشير سرية تدعو إلى الإضرابات والعصيان تتكرر فيها تعابير معينة كالطبقة العاملة، والنهج الثوري، والرفاق، والبنى الفوقية، والبنى التحتية، والبرجوازية المتعفنة، وأرباب العمل، ووسائل الإنتاج، والبروليتاريا، والنضال، والشهيد، وفلسطين، وماركس، وإنجلز، ولينين، وستالين، وتروتسكي، وماو، وداروين، والشرف الثوري، وباقين على العهد، الخ...

كنت قد توقفت حينها عن الذهاب إلى المدرسة وعن الدراسة بعد أن طردت، وبدأت أدخن الحشيش بانتظام، وأحاول تدبير بعض المصروف بالسطو المسلح بالسكاكين، رفقة رشيد ملثمَين، على بنات مصانع النسيج وبعض المارة بين هضبة جبل الرَّايْسي والطريق الخاوية المطلة على النهر. بينما كنت أسحب الكرتونة مساءً إلى

غرفتي كالجثة لأغوص في كتبها ومناشيرها ومسوّداتها ورسائلها على ضوء شمعة محاولاً فكّ شفراتها.

كنت منشغلاً أكثر في أعماقي بالبحث عن وسيلة أفضل من السطو بالسكاكين على البنات لأدبر بها ثروة أكبر من مصروف صغير سريع الزوال. وجدت تلك الكتب والأوراق لا تتحدث في حقيقة الأمر إلّا عن ذلك، لكن بشكل غامض ومضبب. كانت تتكلم باستمرار عن الفقراء والأغنياء، عن الفوارق الطبقية وعن العمال والشعب والثروة والظلم الاجتماعي والثورة. لم أكن قبلها أعرف بالضبط ماذا تعني كلمة فقراء، ولا كلمة أغنياء. كنت أتصور أن الأمر مجرد قسمة ونصيب، وأن الله هو المسؤول الوحيد عن ذلك بناء على حكمة ما غير ظاهرة للعيان، وأن الفقر كالغنى تماماً، مجرد اختبار للعبد، وعلى ذلك العبد، الذي هو أنا، قبول ذلك الاختبار، والرضا بقسمته ونصيبه، وعدم اعتبار الفقر نقيصة ولا الغنى فضيلة كما كانت تقول أمي. كان هذا الكلام مقنعاً لي تقريباً، أو بمعنى أدق لم أكن أعيره اهتماماً كافياً لأفهمه، فقد كان دائماً كلاماً أكبر مني، أبعد ما يكون عن اهتماماتي اليومية، وعن حياتي غير النظيفة داخل عتمات أركان الحي وأوكاره.

لم أجد في الرسائل والمسودات ما يدل على أن خالي كان شخصاً شريراً أو مجرماً، بل على العكس من ذلك كان شخصاً حالماً، رومانسياً إلى أبعد حد، منشغلاً بكلمة شعب، التي لم أفهمها جيداً في البداية ولا في النهاية، أكثر من انشغاله بنفسه، مضحياً بروحه، كما كان يسمي ذلك، لأجل ذلك الشعب.

كان يحب كثيراً جبران خليل جبران فيكرر اسمه وحديثه عنه كثيراً، بل كان يعشقه عشقاً خاصاً واضحاً ويعشق حياته وكتبه كاملة ويستشهد في رسائله بمقاطع حالمة من كتاباته خصوصاً في رسائله الغرامية إلى تُوريّة، وقد سطر تقريباً على كل الجمل في كتب جبران التي كانت داخل الكرتونة، كما يكتب لها أيضاً بعض الخواطر والقصائد التي يؤلفها هو شخصياً بنفسه مقلداً أسلوب جبران خالطاً تلك الرومانسية ببعض الكلمات الثورية، وقد بدا لي ذلك مناقضاً بعض الشيء لصرامة الكتب الأخرى التي تتحدث فقط عن الثورة والعمال بلغة جافة غير مفهومة غالباً.

لم أفهم حينها هل كان خالي يعي حقاً ما يفعل وما يكتب وما هو ذاهب إليه؟ هل كان يعي حقاً أنه كان يتقدم بخطوات ثابتة نحو نهاية حالمة متسرعة ومجانية لوجوده؟ ما الذي كان يدفعه بقوة إلى ذلك؟ هو الذي عاش حياة مختلفة عن أمي وعنا في الدار البيضاء في بيت امرأة عاقر ربته، أنفقت على دراسته، وأصرّت عليها حتى وصل إلى الجامعة وتفوق فيها؟ لماذا لم يختر أن يصير مهندساً كما أرادت له تلك الأم العاقر التي كانت تضع نظّارات طبية كما قالت عنها أمي، وتقرأ الكتب وتتحدث الفرنسية أيضاً وتفهم في السياسة؟ تلك الأم المتعلمة القوية المختلفة عن أمي وعن باقي الأمهات اللائي عرفتهن في الحي. لماذا عوض أن يصير مهندساً كما أرادت له اختار أن يصير جثة هامدة؟ هل كانت جاذبية الموت في داخله أقوى من جاذبية الهندسة؟ هل كان حقاً لتلك الكلمات: وطن، شعب، نضال، فداء، ثورة، معنى ساحر ومستحوذ ومميت لم أستطع أنا فهمه قطّ ولا

تصديقه حتى اليوم؟ ما هو السرّ الأكبر من كل هذا الذي لم أستطع العثور عليه وسط كل تلك الكتب والرسائل والمسوّدات والبيانات والمناشير ليشرح لي ما الذي دفع خالي مجيد إلى اختيار حياته تلك وموته ذاك؟ هل كان حقاً يعتقد أنه سيموت، أم أنه كان يعتقد أن الأمر مجرد لعبة وقد فقد حياته قبل أن يفهم أنها ليست لعبة إطلاقاً، وعلى الخصوص ليست لعبة مسلية؟

ثمّ، وهذا ما حيّرني أكثر حينها، لماذا اختطفوا خالي وعذبوه وسجنوه في سجن سري حتى مات أو أعدموه رغم أنه لم يكن مجرماً ولا بائع حشيش ولا يسطو على السابلة بسكين ولا يرأس عصابة ولا يبيّض الأموال ولا علاقة له من بعيد ولا من قريب بأكواخ الدعارة ولم تكن له سوابق قضائية؟ من هم هؤلاء الملثمون، زوّار الليل، بسياراتهم السوداء غير المرقّمة، الذين قرروا موته داخل محكمة بلا قضاة، بينما لم تكن تتردد في رسائله وخطاباته سوى هذه الكلمات: وطن، شعب، نضال، فداء، ثورة، وأشعار ومقاطع حالمة من كتب جبران خليل جبران؟

غُصت شهوراً طويلة داخل تلك الكتب والأوراق والمناشير والبيانات الطويلة. أمسيت مدمناً على تلك الكتب، أقرأها ليلاً ونهاراً، ليس حباً في القراءة، بل بحثاً عن أجوبة مقنعة. كان أنين أمي التي ساءت حالتها أكثر تلك الأيام هو ما دفعني أكثر للقراءة، ممسكاً في يدي لفافة حشيش كل مرة، وفي يدي الأخرى كتاباً ضخماً ذا غلاف أصفر وأوراق صفراء.

لكن تلك الكتب، عكس ما كان متوقعاً لي، عوض أن تمنحني

أجوبة تشفي غليل أمي منحتني أسئلة أكثر، وقلقاً أكبر، ولخبطت أشياء كثيرة في دماغي كانت صغيرة مرتبة ومكتفية بذاتها. أصبحت مهتمّاً بتلك الكتب وكتابها، منشغلاً بفهمها أكثر من انشغالي فقط بخالي ومنشوراته السرية ورسائله الغرامية أو. انشغالي بالحي، خصوصاً أن علاقتي بتلك الكرتونة المثقلة بالكتب التي رافقت حياتي كاملة حتى تلك اللحظة، كانت أكبر بكثير من مجرد علاقة مباشرة لشخص بمجموعة من الكتب والأوراق، بل كانت تلك الكرتونة هناك دائماً في زاوية آمنة من زوايا الكوخ مغطاة دائماً بإزار طرّزت أمي حوافه بيديها. كانت دائماً هناك، كأيقونة غامضة ومقدسة تصلي أمامها أمي بخشوع وتشملها برعايتها الدائمة واهتمامها كأنها أخ حقيقي لي، أو كأنها بالضبط هي خالي ما زال هارباً من المخزن، مختبئاً بأمان في بيتنا. بل لقد كانت تلك الكرتونة بالضبط هي خالي متجسداً فيها في صمت مطبق وسكينة دائمة محيّرة.

لكني، وبعد أكثر من سنتين من فضي لبكارة قداسة تلك الكرتونة، باقترابي منها وبعثرة كتبها وأوراقها من أجل فك لغزها بقراءتها وإعادة قراءتها مراراً وتكراراً على ضوء شمعة، والتسكع وحيداً على هضبة جبل الرَّايْسي مساءً أو على ضفة النهر أو فوق السكة المهجورة وقد أعفيت ذقني دون حلاقة كالماركسيين لأفكر وأتأمل في ما قرأت واضعاً نصب عيني أسئلة كثيرة أصبحت ملحة عليّ وانكسارَ أمي وشعرها الذي شاب سريعاً وصورة خالي التي بدأت حوافها بالانمحاء لكثرة ما لمستها الأيدي وسالت فوقها الدموع،

رغم كل ذلك لم أفلح وبصعوبة شديدة إلّا في فهم شيءٍ واحد: إن العالم ليس هو حيّنا فقط كما كنت أعتقد، بل العالم كبير جداً إلى درجة أن حيّنا لا يمكن أن يكون سوى بقّة طفيليّة مجهريّة على حافة طيزه، وليس مقسماً كما كنت أتصور إلى قارات ودول وأجناس كثيرة وبِيض وسود وديانات أخرى غير ديانة أمي وأبي ولغات كثيرة وجغرافيات متنوعة وبحار ومحيطات وغابات وبراكين وشلالات الخ... كما عرفت ذلك في المدرسة عبر دروس التاريخ والجغرافيا والتربية الإسلامية. بل مقسم في حقيقة الأمر فقط إلى أغنياء وفقراء، أسياد وأقنان، أذكياء ومغفلين، نبلاء وحثالة.

وافق مزاجي كثيراً هذا الفهم أكثر من أي فهم آخر، ولا أعرف حقاً إن كان هو ما تقصده تلك الكتب أم هو ما كان معششاً في دماغي قبل أن أنشغل بتلك الكتب، فقد وجدته واضحاً وبسيطاً أكثر مما حوته أغلب الصفحات التي لم أفهم منها شيئاً رغم قراءتي لها أكثر من مرة. شعرت كما لو أني عثرت على مفتاح مهم كان خفياً عني خلف كومة عملاقة من التبن داخل تلك الكتب أو داخل دماغي. فهمت مباشرة أن سكان القصور وحي السّويسي وحي الرّياض وبير قاسم والملك والوزراء والقَايْدْ والتجار الكبار هم الأغنياء الأسياد الأذكياء النبلاء، ونحن الفقراء العبيد الأغبياء الحثالة، وأن القوانين والأعراف والأخلاق هي السور الحديدي المنيع الذي يفصل بين هؤلاء وأولئك، فكلها ليس هدفها حفظ الأمن وإشاعة العدالة والفضيلة كما يدّعون بقدر ما هدفها الوحيد هو حماية الأغنياء الأسياد من الفقراء المعدمين. كان ذلك واضحاً

ومقنعاً بالنسبة لي، فقد كنت أرى جيداً ما الذي كانت تفعله الشرطة ويفعله الْقَايْدْ رفقة مْقَدّمه ومَخَازِنِيَّتِه، لقد كانوا أسوأ بكثير حتى من أعتى العصابات.

لم يكن هناك من مجال أمامي للشك في هذا الفهم، فقد أحسسته عميقاً، وتشربته كاملاً مع أنفاس لفائف الحشيش، كما تتشرّب الإسفنجة أوساخ المطبخ، ليس من تلك الكتب بالضبط، بل مما حولي ومن حياتي الشبيهة ببركة موحلة مليئة فقط بالضفادع والملاريا وخالية بالكامل من أية أسماك ملونة. بل أحسست أني كنت أعيش بناء على ذلك الفهم طوال حياتي، سوى أنه كان فهماً مصغراً وغير مرتب، ولم تكن هناك من كلمات لتفصح عنه.

في تلك الأيام كنا رشيد وأنا قد قررنا بيع الحشيش عوض شرائه فقط كأي مدمنين تافهين. كنت قبل ذلك أندم كلما اقترفت شيئاً ضد القانون، وأحياناً يؤنبني ضميري بشدة، لكن تلك التجربة التي حاولت البحث فيها عن روح خالي المغدورة داخل كتبه وأوراقه جعلتني أرى العالم من مكان آخر جديد عليّ، أو على الأقل فتحت لي باباً كنت مستعداً فطرياً للدخول منه واكتشاف ما بداخله من عوالم محرمة وكنت أنتظر فقط أن تَنفتح أقفاله أو تُكسر.

لم تعد الجريمة بالنسبة لي تعني العار والخطيئة والضلال، بقدر ما تعني الدفاع عن النفس. فالعار الحقيقي والشنار والخطيئة والضلال هي أن يولد آلاف من الناس كالبكتيريا في هذا الحي الشبيه بالقيء، وفي أحياء كثيرة في العالم على غراره، وأن يعيشوا حياتهم كاملة فيه حتى يحملهم جيرانهم على نعوش إلى مقبرة

الشُّهَدَاء المقفرة، بينما يولد أناس آخرون في أماكن أخرى شاسعة مزهرة وأكثر فخامة من الجنة وأن يعيشوا حياتهم كاملة فيها، دون أن يجربوا العيش يوماً واحداً هنا، ودون أن تؤلمهم ضمائرهم ولا مؤخراتهم.

لقد قتلوا خالي لأنه فهم ما فهمته. أراد رفقة ثلة من رفاقه الحثالة عبر تنظيم سياسي سري قلب موازين ما كانوا يسمونه الصراع الطبقي، بحيث يصبح العبيد هم الأسياد، والأسياد هم الحثالة.

يبدو حقاً أن شيئاً كهذا أكثر أهمية ومدعاة للمجازفة والإثارة من دراسة الهندسة.

لكن خالي كان مثقفاً أكثر من اللازم، متأثراً بالكتب وبلغتها الغامضة أكثر، ربما، من تأثره بالواقع، لذلك حلم بقلب موازين الصراع الطبقي للشعب بأكمله، وليس لنفسه فقط.

كان بإمكانه في الحقيقة أن ينتقل هو وحده من طبقة الحثالة إلى طبقة النبلاء دون حزب ودون منشورات سرية ودون مظاهرات ودون بيانات نقابية وعمالية ودون كلمة شعب. إذ إن محاولة قلب الموازين بالاعتماد على الحثالة ولأجلهم أسوأ بكثير من العيش كحثالة إلى الأبد. على الأرجح هناك آخرون أذكى من خالي ومن رفاقه المتحمسين، هم من دفعوهم إلى التضحية والنضال والفداء، والأكيد هو أنهم انتقلوا بعدها بضربة قاضية بعصا الساحر من طبقة الأقنان والصراصير والخنافس إلى طبقة الأسياد النبلاء الحكام المتحكمين في الثروة وفي وسائل الإنتاج، بينما أكل خالي ورفاقه الخراء طازجاً، ولم تبق منه ومنهم سوى تلك الرسائل الثورية الرومانسية التي لم

تستطع أن تشتري لأمي حتى منديلاً تمسح به دموعها.

كانوا ينشطون ويتحركون في جماعات وتنظيمات لولبية متشعبة لا يعرف بعضُها بعضَها الآخر، عوض أن يفكر كلّ واحد منهم بشكل مستقل وحاسم من أجل قلب الموازين لصالح نفسه وليس لصالح ملايين الناس المجهولين. كان ينقصهم ذلك الحسم، الذي تمتلكه العصابات. بل كانوا يحتمون ببعضهم معوّلين على الكثرة وعلى مؤازرة الشعب لتحركاتهم ومظاهراتهم وعصيانهم، وقد كان المحرك الأساسي لذلك على ما يبدو ليس التضحية والفداء والنضال الظاهر في خطاباتهم ومنشوراتهم ورسائلهم وكتبهم، بل الجبن الخالص. كما أن تعويلهم على هذه الكلمة: شعب، كان شبيهاً بتعويل البحر على زبد أمواجه.

لم يكن خالي يفكر بعقل زعيم عصابة كما كان يجب، بل كان يفكر بعقل طالب جامعي مثقف ونخبوي متأثر بثلة من الكتّاب والفلاسفة الفقراء المشعثين. قررت حينها أن أواصل الطريق عوضاً عنه، بالطريقة الصحيحة وليس الخاطئة، بطريقة أبناء حيي وليس بطريقة طلاب الجامعات، دون أحزاب ودون نقابات ودون تنظيمات ودون مظاهرات ودون رسائل مشفرة، بل بمفردي فقط، بسكين كبيرة داخل ثيابي. أو فقط رفقة بعض أصدقاء طفولتي الذين لم يسبق لهم قطّ أن قرأوا كتاباً، ولا يعرفون أبداً ما تعنيه بالضبط كلمة شعب، ولا كلمة نضال، ولا كلمة ثورة، بل كل ما يعرفونه هو كلمة ثروة، وكلمة حشيش.

ماتت أمي. قررنا عبد الرحمن ورشيد وأنا الحصول على الثروة

أو الموت، قررنا المشي قدماً في تلك الطريق حتى النهاية. لم يكن يهمهما معنى الصراع الطبقي ولا ما قاله فيه ماركس وإنجلز ولا ماذا تعني كلمة دولة، ولم أحدثهما قطّ عن ذلك ولا عن كرتونة الكتب التي لم تعد تعني لي شيئاً، بقدر ما كانوا يخوضون ذلك الصراع بالفطرة السليمة أكثر كفاءة من الماركسيين القدامى أنفسهم.

الشيء الوحيد الذي كنت أختلف عنهما فيه، الذي لا يعرفه حراس هذا السجن المتهرئ، هو أنهما كانا يضعان نصب أعينهما عصابات الحشيش الأخرى فقط وأكواخ القوادين وتصفية الحسابات الصغيرة بين حثالة الحي، بينما كنت أضع نصب عيني الدولة والعالم كاملاً والسماء وما خلفها.

بعنا الحشيش أنا ورشيد، ثم التحق بنا عبد الرحمن. كنا نجني مالاً كافياً لسهرات باذخة لم نعهد مثلها، لكننا لم نكن بقوة عصابات الحشيش الأخرى التي سرعان ما قد تفتك بنا. فكرت أن ننقل تجارتنا إلى خارج الحي. لماذا لا يذوق أبناء الأغنياء من بضاعتنا الجيدة؟ لماذا لا يذهبون في ضلال عميم هم أيضاً؟ كنت أفكر دائماً بعقل حاقد غير قابل للتفاوض، وكانت تلك فكرة جيدة للغاية، ولم أكن لأظهر نفسي أمامهما زعيماً بل شريكٌ فقط وتابعٌ أحياناً تاركاً الزعامة في الغالب لرشيد وأحياناً لعبد الرحمن. كنا قد كسبنا ثقة عصابة كبيرة في عكراش مروجة بالجملة للحشيش والبودرة، فقررنا أن نجمع مالاً كافياً لشراء كمية محترمة من بضاعة من نوع آخر، البودرة البيضاء الثمينة، وخلطها بالطحين، وبيعها كاملة خارج الحي لأبناء الأغنياء أمام أبواب المعاهد العليا

والثانويات الخاصة، ثم بعد ذلك بيع البودرة بالجملة لتجار مبتدئين من مدن أخرى ومراكمة ثروة سريعة للخروج النهائي من الحي. بعدها سآخذ طريقاً أخرى بعيدة عن طريق رشيد وعبد الرحمن، سأشتري بَارْكُو صغيراً لصيد السمك، سأسكن بحي الرياض، وسأنسى الحثالة إلى الأبد.

كانت فكرة أكثر لذة وإغراء، وكانت طفولتنا وحياتنا داخل الحي شبيهة بدورة تكوينية مكثفة على القدرة على إنجاح ذلك. كان عبد الرحمن لشدة بلادته وابتسامته العريضة الدائمة وتهوره غير المحسوب وحذقه العَمَلي الفطري، مروجاً جيداً للحشيش في حي أَكْدَالْ وحي السّويسي، فقد بدأ الزبائن يتقاطرون على الحي بسيارات فارهة، على غير ما ألفه سكان الحي وعصاباته. الأمر الذي أثار حنقهم تجاهنا، رغم أننا تخلينا عن منافستهم على الزبائن الذين داخل الحي.

لكننا رغم ذلك واصلنا طريقنا تلك المحفوفة بالموت أكثر مما هي محفوفة بالثروة. اضطررنا إلى قتل شخصين، هاجمانا في طريقنا ذات مرة ونحن عائدين من عكراش بعد تسلمنا بضاعة حشيش. كان الظلام قد نزل فوق أرض مِيسَاوَةْ، وكما يقول عجزة الحي، المُهاجِم يموت شرعاً. لقد هاجمونا على حين غرة، سقطنا عن الدرّاجة النارية الْمُوبِيلِيتْ. كنت أنا من يسوق وكان رشيد يركب في الخلف. كانت معركة سريعة وخاطفة، كان بالإمكان أن تنغرس السكاكين في بطنينا، لكن سكيناً انغرست في ذراعي فقط بينما تفادى رشيد سكيناً قصدت عنقه، في الوقت نفسه الذي انغرست سكيني حتى

قبضتها في بطن أحد أولئك الحثالة، وانغرست سكين رشيد في عنق الآخر. سحبناهما من أقدامهما إلى حقل بصل تلامس نهايته الطريق غير المرصوفة، أوقف رشيد الدراجة وأدار محركها، ركبت خلفه وانطلقنا وذراعي تنزف.

كانا قاطعي طريق مبتدئين وفاشلين، ترصّدا حركاتنا وسكناتنا، عرفا أننا لا نقصد عكراش إلا ومعنا مال كثير، ولا نعود منه إلا ومعنا ما يساوي ذلك المال بضاعة. كان اسم أحدهما وْلدْ الربّاح، والثاني لقبه الغندور. كانا صبيّين في عصابة الشعبة، وقد لقيا جزاءهما العادل، جزاء المهاجِم.

لم تصل الشرطة إلى شيء، أو لعلها، كعادتها، أصلاً لم تكلف نفسها عناء البحث والتقصي. لستِ فخوراً جداً بما حدث، لكني لم أكن لأكون فخوراً لو أنهما استطاعا أن يفعلا بنا ما فعلناه بهما، أو أن يجردانا من البضاعة.

عصابة الشعبة عرفت كل شيء لأنها هي من أرسلتهما، وقد جعلها ذلك تحسب لنا الحساب بقدر ما جعل طريقنا تمتلئ بعد ذلك بحفر أخطر وأكثر رعباً، فتلك العصابة لن تسكت.

لم يمرّ شهر على ذلك حتى أحرقوا كوخ رشيد فأصيبت أخته ميلُودَة بحروق من الدرجة الأولى اضطرتها هي وأمها للرحيل من الحي والعودة بوجه مشوّه إلى حي دوّار الحاجّة، بينما اضطر رشيد للسكن معي. ثم أحرقت العصابة بيتنا فاضطررت أنا ورشيد للسكن في بيت عبد الرحمن الذي كان يسكن بيتاً إسمنتياً في غرفة على السطح عند طرف الحي رفقة امرأة عجوز كانت قد اعتبرته ابناً لها

يعتني بها ويقضي حوائجها بعد وفاة أمه سَلِيمَة بالسلّ. كان بيتاً من طابقين، من البيوت القليلة المبنية المنيعة التي تطل على أكواخ الحي. كانت العجوز أمّاً لرجل لقبه طَلْحَةْ، يشتغل سائقاً لعقيد. كان من الصعب على عصابة الشعبة إحراق بيت العجوز، أولاً لأنه إسمنتيّ، وثانياً لأنه بيت أمّ سائق العقيد. لكن العصابة حاصرتنا حصاراً كاملاً، فلم يعد بإمكاننا التحرك بحرية كالسابق، بل ملثمين في الغالب، وليلاً فقط.

هاجمت الشرطة الحي في حملة مكثفة مفاجئة واعتقلت عدداً كبيراً من تجار الحشيش وأفراد العصابات والقوادين مستعملة الرصاص الحي الذي لا يسمح لها بحمله واستعماله عادة في شوارع وأحياء ومدن أخرى، أما حيّنا فكان دائماً حالة طوارئ، لا يمكن للشرطة دخوله دون مسدسات محشوة بالرصاص، إذ في الغالب يُقتل أحد عناصرها في حملات كهذه.

تفعل ذلك عادة بين كل ثلاثة أشهر وأخرى لاستخلاص أكبر قدر ممكن من الإتاوات ولإعادة إرساء الأمن حتى لا تخرج الأمور عن سيطرتها. كان ذلك لصالحنا، فقد أضعفَ عصابة الشعبة بعد اعتقال رئيسها وعدد لا بأس به من حثالتها. كان تسعة من أفرادها وهم أبناء الْبُولُونْجِي يسكنون ثلاثة أكواخ متلاصقة رفقة عائلاتهم وأبنائهم فبعضهم كان متزوجاً وله أطفال. أحدهم هو عبد الرزاق، طعن عبد الرحمن في وجهه بعد شجار افتعله عبد الرزاق قرب السَّقَّايَة. بعد ثلاثة أيام كان وجه عبد الرحمن متورماً ومكان الطعنة متقيحاً. ملأنا قربة بالبنزين وأعطيناها لشْمْكَارٍ اسمه خُنْفاشْ إضافة

إلى قطعة حشيش كبيرة. كان يشاع في الحي منذ سنوات طويلة أن عبد الرزاق ناك خنفاش دون بصاق أكثر من مرة في السَّانْيِةْ. كانت مهمته واضحة وكانت قطعة الحشيش في يده كافية حتى لإغراء جمل بالصهيل.

كان قد بلع كعادته شريحة كاملة من حبوب الْقَرْقُوبِي المهلوسة وشمّ ما يكفي من السِّلسْيُونْ. صبّ القربة في الظلام فوق كوخ من أكواخ عائلة أبناء البولونجي، وبعد أن برم لفافة حشيش أشعل عود ثقاب، أشعل منه اللفافة، أخذ منها نفساً عميقاً، ثم ألقاه مشتعلًا بطريقة سينمائيّة في اتجاه الكوخ. اشتعلت النار فوق الكوخ آخذة شكل البرق، ثم انتقلت إلى الكوخ الذي يليه، ثم الكوخ الذي يليه، حتى غطت ستة أكواخ. ماتت زوجة البولونجي عَيْشَة الشهباء وابنه الأصغر المراهق دَحْمَانْ وثلاثة أطفال وعجوز اسمها خالتي دَاميّة لا علاقة لها بعائلة البولونجي من بعيد ولا من قريب وأشخاص آخرون لم تُعرف هوياتهم، واحترقت وجوه وأطراف عدد كبير من الأشخاص بعضهم من عائلة البولونجي وبعضهم من جيرانهم، بينما نجا عبد الرزاق وباقي إخوته. قال بعض الوشاة لعبد الرزاق إن خنفاش هو من فعلها، فبدا له منطقياً أن يفعلها.

بعد خمسة أيام وُجد خنفاش عائماً على ضفة النهر بثيابه وحذائه وقد طُعن في كل مكان من جسمه طعنات بلا عدد.

كان عبد الرزاق قد ناك خنفاش فعلاً في السانية أكثر من مرة بشهادة أكثر من شخص. لم يكن بإمكان خنفاش الدفاع عن نفسه فقد كان أعرج وأصغر وأضعف من عبد الرزاق إضافة إلى أنه كان

يتأتئ أثناء محاولته الكلام. كان من الضروري أن ينتقم ذات يوم من عبد الرزاق، وقد منحناه تلك الفرصة، إضافة إلى قطعة حشيش كبيرة بقشيشاً منا.

عبد الرزاق نكح خنفاش مراراً في السانية وربما أيضاً مرات أخرى في أماكن أخرى، وها هو خنفاش ينتفض أخيراً وينكح عائلة عبد الرزاق كاملة بقضيب عملاق من نار. حتى أن أبناء الحي أقروا بشجاعة خنفاش بعد ذلك، بدفاعه عن شرفه ورجولته، عوض أن يحتقروه كما كانوا يفعلون سابقاً باعتباره مجرد غلام لعبد الرزاق. بل احترموه هذه المرة واعتبروه رجلاً، وراقبوا مرور جنازته بوقار، ولم يستطع عبد الرزاق فعل شيء آخر له بعد تفحم أمه وتفحم أخيه وبعض من أفراد عائلته أكثر من قتله، فظل غله في صدره مشتعلاً غير قابل للانطفاء حتى بعد تحول جثة خنفاش داخل قبره إلى هيكل عظمي.

لقد انتصر خنفاش وهو حيّ في آخر أيامه كما انتصر أيضاً وهو ميت، بينما انهزم عبد الرزاق إلى الأبد.

لست فخوراً بذلك، لكني لم أكن لأكون فخوراً أيضاً لو أن رشيد تفحم داخل كوخه أو تفحمت أمه وأخته بالكامل حين أشعلوا فيه النار. ولم أكن لأكون فخوراً لو أني أنا ورشيد تفحمنا معاً حين أضرموا النار في كوخنا، ولم أكن لأكون فخوراً لو أن عبد الرزاق أصاب بطن عبد الرحمن ذلك اليوم عوض خده فقط.

إنها الحرب، كل يوم جديد في حياتك هو يوم حرب، ومن يضعف أثناء الحرب أو يشفق على ضحيته يصبح في لمح البصر هو

الضحية. لا شفقة في الحرب ولا أخلاق ولا مواعظ رتيبة. من يشعل الحرب عليه أن يتحمل مسؤولية احتراقه بنارها.

بعد احتراق كوخنا لم أعد أملك شيئاً قابلاً لأن يحرقوه، بل أصبحت مستعداً وجاهزاً فقط لأن أحْرِق، ولا دخل أبداً في حقيقة الأمر للشرطة في ما يحدث داخل الحي من تصفيات وأعطاب وحرائق كهذه، فالشرطة نفسها والدولة بكاملها وحتى باقي دول العالم قاطبة لم تكن تختلف عنا في شيء، بل كانت دائماً دون شك أسوأ وأبشع. عندما تدخل دولة الحرب لا يمكن أبداً أن يكون لذلك من مبرر، سوى استعدادها المسبق لسفك الدماء دون ندم كضواري الغابات والأدغال. ما معنى، إذن، أن تمتلك دولة جيوشاً وأسلحة؟ سوى أنها مستعدة في أي لحظة للحرب والدمار والخراب تحت مبررات ومسوغات غير مقنعة كالدفاع عن النفس. هذا المبرر نفسه الذي تتخذه كل الدول لتمتلك سلاحاً رهيباً وعتاداً وجنوداً مستعدين للقتل والتنكيل بالخصوم بعد أول أمر مختصر في كلمة واحدة لا معنى أخلاقياً لها هي كلمة أهجموا.

قد تبدو حربنا داخل الحي من أجل البقاء ومن أجل الخروج من جحيم الحثالة حرب شوارع وأبناء حَواري عديمي التربية والأخلاق، وسخةً وخارجة عن العدالة والقانون والأخلاق الإنسانية الحميدة. هذا صحيح دون شك، لكن، من يحدد ذلك القانون وتلك العدالة وتلك الأخلاق الحميدة؟ أليست تلك الدول نفسها التي لا شك أن لها تاريخاً مجيداً في الحروب والدمار وتدمير المنازل وحرق الأعداء بالقنابل والقذائف والصواريخ؟ أليست تلك الدول نفسها

عصابات مسلحة تحتجز شعوباً عزلاء بكاملها لتفعل بها ما تشاء وما تريد؟ إن لها حقاً مميزات وصفات وأسلوب العصابات الكبيرة العريقة، هناك دائماً زعيم وحرس وسلاح وسيارات مصفحة سوداء تنقل الملوك والرؤساء والوزراء بسرعة شديدة، وهذا هو المظهر والسلوك الناجع لأي عصابة. ما علاقتنا نحن، إذن، في ذلك الحي بالشرطة أو بالحكومة أو بالدولة أو بأي حكومة أو دولة أخرى في العالم؟ لا توجد أي علاقة سوى في قدرتهم على تحويلنا إلى قطاعات وثغور ومحمياتٍ خاصةٍ بعصابة دولةٍ دون عصابة دولة أخرى، وتجريدنا من السلاح والإرادة، وتحويلنا إلى أُجراء لدى تلك العصابة ومستضعفين عزّل يجب عليهم دفع الإتاوات والمكوس والضرائب والرسوم والنساء للفتوّة ورجاله.

إمّا أن تنضمّ إلى عصابة الدولة لتصير رجلاً من رجالها وزيراً أو قائداً أو شرطياً أو مُقَدَّماً وإمّا أن تنضمّ إلى عصابة أخرى تؤسسها بنفسك رفقة أصدقائك. هكذا كان يجب أن تجري الأمور دائماً، دون كثير ثرثرة، بل بصمت مطبق، ونظرات يقظة، وقدرة دائمة على الحذر بالحدس والتقدم بقلب جامد وسط الجثث والخراب والدمار. إن لم يكن ذلك من أجل النهب، فليكن على الأقل فقط من أجل حماية نفسك من النهب.

لا أستطيع أبداً أن أفهم كيف تستطيع الدولة منح نفسها حق سجن الناس كما تسجنني الآن، أو إعدامهم أو إفراغهم من بيوتهم أو ترحيلهم أو منح عمل لبعضهم وحرمان بعضهم الآخر منه؟ من تكون هذه الدولة إذن؟ ولماذا يُراكم رجالاتها ثروات هائلة

وقصوراً وفِلَلاً وضياعاً وسيارات فارهة بينما على الحثالة والأوغاد من السواد الأعظم السكن في الكاريانات والدواوير الصفيحية والأجراف وارتداء الأسمال والاقتيات على الخبز الجاف والشوك واليأس والظلام طيلة حياتهم وحتى بعد موتهم؟

من سيتطوع من المرشدين الاجتماعيين أو المثقفين المهندمين أو من رجال التعليم الصالحين أو من الفقهاء المتّقين لإجابتي عن هذا السؤال؟ وعن سؤال آخر يلحّ عليّ مثلما يلحّ عليّ الآن أيضاً من جديد ألم هذا الجرح الذي على جبيني في هذه الزنزانة الانفرادية الزنخة التي أتحرك فيها الآن في الظلام جيئة وذهاباً دون أكل ولا شراب كنمر في قفص: ما هو الفرق في نظرهم بين إعدامنا، رشيد وأنا، لصبيَّيْ عصابة الشعبة قرب حقل البصل، وبين اختطاف الدولة لخالي وإعدامه؟

لقد حاول أولئك الحثالة قلب موازين الصراع ضد عصابتنا الصغيرة المكونة، فقط، من ثلاثة أفراد يائسين بسلب ما جنيناه بعد جهد جهيد وكد ورعب من تجارة الحشيش بالتقسيط، بينما حاول خالي قلب موازين الصراع على أبعد مدى ضد عصابة الدولة المكونة من آلاف الأشخاص والتي لا تكدس الثروة من عائدات تجارة الحشيش بالجملة فقط، بل من عائدات كل تجارة أخرى يمكنك تصورها أو حتى عدم تصورها، من الحشيش إلى السمك إلى الملح إلى الصلاة إلى الأعضاء البشرية إلى الفوسفات إلى البصاق إلى الزعفران والغَاسُولِ والصابون البلدي والسجائر والكحول إلى العوازل الطبية والقوادة في صورتها السياحية المشرقة اللّيكْسْ.

مَن مِن أولئك الرجال الأنقياء المضحكين نظيفي اليد والسريرة الذين يأخذون أجورهم عن وظائفهم اللطيفة من خزينة بيت مال المسلمين مستعد إذن لإجابتي عن هذه الأسئلة؟ سوى أن يكون مستعداً أيضاً لمصّ قضيبي بعد مداعبته جيداً بيده الطاهرة الرقيقة.

لقد قررت الذهاب في هذه الطريق الواضحة أمامي كوضوح السراب دون ندم أو تراجع وانتهى الأمر، وها قد أوصلتني الآن إلى هذه الزنزانة كما أوصلت رشيد وعبد الرحمن إلى المقبرة. لكن السجن أو المقبرة أفضل بكثير في كل الأحوال من الحياة الطويلة البئيسة الخالية من الأمان داخل قيء عملاق.

كانت تجارتنا قد بدأت تزدهر، وزبائننا أصبحوا رسميين حتى من داخل الحي، والعصابات المجاورة بدأت تحسب لنا حساباً بعد مواجهات كثيرة معها، خصوصاً بعد تحدي زعيم عصابة معروفة لم يكن لها اسم سوى أنها كانت تعرف بعصابة براريك الْقُرْعَة، وهي براريك محايثة للطريق كان يفترض أن تُرحّل بواسطة قُرعة تجريها الولاية إلى إقامة سكنية شبيهة بصناديق الفواكه أنشأتها الدولة قرب مقبرة الصِّدِّيق؛ بعد تحدي زعيم تلك العصابة الْغَزْوَانِي لرشيد أن يواجهه أمام الجميع رجلاً لرجل دون تدخل أحد آخر، ومن يُهزم يموت أو يبايع ويحني رأسه ويذهب. كان ذلك بناء على حساب قديم بينهما لم يُصفَّ، حيث كان رشيد قد شارك رفقة آخرين من الحي في اغتصاب أخت الغزواني مناوبة خلف مصانع النسيج. كان رشيد نحيفاً وطويلاً لكن ملامحه كانت جافة صارمة حتى حين يتبسم وعظامه صلبة جداً بحيث أن وزنه كان أكبر بكثير من هيئته

رغم رشاقته، بينما كان الغزواني قصيراً مَدْكُوكاً كبرميل البارود، عنقه غير مرئي تقريباً يكاد رأسه يلصق بأكتافه، كانت أذرعه سميكة موشومة ونظرته يقدح منها شرّ دائم. تواجها فوق قمة هضبة جبل الرايسي وسط الدوم والشوك والحشائش وقد تحلقنا حولهما في عدد يتجاوز العشرين في حياد تام. قانون المواجهة الشائع هو أن يقتل أحدهما الآخر أو يستسلم أحدهما فيبايع الآخر ويحني رأسه أمامه وأمام الجميع بخنوع قبل ينسحب إلى الأبد، وألّا يتدخل أيّ أحد آخر أبداً أثناء المواجهة. أما من يرفض المواجهة التي دعي إليها فيعتبر مباشرة منهزماً جباناً ذليلاً. كلاهما كان يحمل سكينه في يده ولا يرتدي سوى السروال. دارا حول بعضهما كالناعورة بعض الوقت محاولين، كل واحد منهما على حدة، اقتناص غفلة الآخر لطعنه دون تلقي طعنة. دام ذلك دقائق سُمعت فيها هتافاتنا بالتشجيع المتداخل مترددة أصداؤها في الوادي كهتافات مشجعي مباراة ملاكمة، لكنها لم تكن مباراة ملاكمة بل مباراة في القتل الحقيقي. أتذكر أن ذلك اليوم كان غائماً وكئيباً وأن سرباً من طيور البقر مرّ فوقنا مباشرة تقريباً يكاد يلمس رؤوسنا. لا أعرف كيف مرّ في ذلك الوقت بالذات ولا كيف لم تخفه هتافاتنا، لكن ذلك هو ما حدث وهو ما أذكره الآن بوضوح، وقد كانت يدي مطبقة على قبضة سكيني داخل حزام السروال. لا أعتقد أبداً أن رشيد والغزواني قد انتبها لسرب طيور البقر، فقد كانا مركزين النظر في بعضيهما بشكل جنوني هائج وكان السكينان تبرقان في يديهما عند كل حركة سريعة حتى تبدوا كأنهما عشرات السكاكين.

طعن الغزواني رشيد في ركبته بضربة خاطفة لكن يده كانت قصيرة رغم ذلك. هاج رشيد أكثر وجحظت عيناه وقد أحسّ بالسكين تلمس لحمه، هاجم الغزواني بيده الطويلة مادّاً شفرتها كسيف في اتجاه بطنه. أمسك الغزواني بطنه وجثا على ركبتيه يلهث كثور مصارعة ظانّاً أن أمعاءه ستندلق منها، عالجه رشيد بطعنة أخرى شقت كتفه الضخم العاري. رفع الغزواني يده استسلاماً متفادياً طعنة أخرى. تدخلنا جميعاً لإنهاء المواجهة ومنع رشيد من إضافة طعنات أخرى غير قانونية للغزواني. لقد انتهت المواجهة.

بايع الغزواني رشيد وانسحب حانياً رأسه وسط رفاقه بِغِلّ خفي مضاعف. لم يمت لكن الهزيمة والطعنات قللت كثيراً من سطوته. انتشر الخبر سريعاً في كل مكان وكان ذلك إشهاراً جيداً ومجانياً لسمعة عصابتنا.

ازدهرت تجارتنا بشكل جيد. أخذنا نقسم الأرباح إلى قسمين، قسم نصرفه ونشتري منه بضاعة جديدة من الحشيش وقسم نوفره بناء على الخطة.

استمرّ ذلك شهرين متتابعين، وكان الشهر الثالث هو رمضان، حيث أصبح الطلب أكثر من العرض وأصبحت البضاعة تنفد بسرعة. كنا قد جمعنا مبلغاً لا بأس به بعد أن عملنا ليل نهار مستغلين انفراج الأوضاع.

في صبيحة يوم عيد الفطر داهمت الشرطة الحيّ. كنت خارج البيت وعلى يدي ضمادة تصل حتى كوعي، مطعوناً من طرف عبد الرزاق والدم يظهر على سطح الضمادة التي تشربته. اعتقلتني

الشرطة بعد أن حاولت الهرب. كان في جيبي قطعة حشيش صغيرة وداخل حزامي سكيني. حكموا عليّ بستة أشهر سجناً نافذة دون تهمة واضحة. اتهموني ببيع الحشيش لكني أنكرت ذلك. تلقيت بعض الصفعات من شرطيين أثناء التحقيق لكني لم أعترف بشيء. كانت تلك هي عادة الشرطة كلما اقتحمت حيّنا، كل من لم تجد تهمة مباشرة تثبتها ضده تحكم عليه بستة أشهر سجناً بقشيشاً لحيازته سلاحا أبيض أو قطعة حشيش أو حبة قرقوبي مهلوسة أو حتى إن لم تجد في جيبه شيئاً، رغم أن جميع أبناء الحي كانوا يحملون سكاكين وسواطير وحشيشاً وحبوب هلوسة وكان ذلك أمراً عادياً. كانت تعرف أن الجميع متورط بشكل أو بآخر. بعد شهرين داخل السجن جاء خمسة من عناصر الشرطة بألبسة غير نظامية إلى عنبر السجن رفقة حارس الجناح، أخذوني إلى حجرة فارغة وحققوا معي بناء على وشاية:

- إذن أنت هو مراد وُلْدْ السَّلاَّخْ؟
- نعم.
- من هو رشيد ومن هو عبد الرحمن؟
- أبناء حيّي.
- هل يبيعان الحشيش؟
- لا أدري.

كانوا طبعاً يعرفون بشكل أو بآخر أننا نبيع الحشيش، كما يعرفون أيضاً أن باعة الحشيش يراكمون أموالاً يخفونها دائماً في حفر وشقوق جدران وداخل براميل طحين وفي أماكن أخرى لا

يصل إليها حتى الذباب الأزرق. لم يكن يهمهم باعة الحشيش في شيء فقد كانوا يتركونهم يبيعون كي يراكموا المال عوض اعتقالهم، بقدر ما كان يهمهم الوصول إلى ذلك المال المراكم والمكدس:

– أنت تتاجر معهما في الحشيش؟

– لا.

– أخبرنا الحقيقة وسنعتقلهما فقط ونعفيك أنت من هذه القصة.

–

– أين يخفيان المال؟

– لا أعرف.

تقدم أحدهم شنبه يخفي شفته العليا وكان قد شمّر قميصه حتى ظهر كامل ساعديه:

– لا تعرف أين يا ولد القحبة؟

ولكمني مباشرة في أنفي. أحسست بأنفي مضاعفة وسائل ساخن بدأ يسيل منها:

– ستعترف بكل شيء حين نَحْوِيكَ الآن.

– أين المال؟

– لا أعرف شيئاً، أنا في السجن منذ شهرين.

لكمني من جديد، ثم توالت اللكمات والصفعات والركل من كل جانب. كانوا يضربون بقوة وكنت أحاول أن أحمي وجهي ورأسي فقط بركبتيّ وبيديّ المصفدتين بِمِينُوطٍ ضاغط بقوة على رسغيّ. لم أعد أحسّ بشيء. مغمض العينين أكرّر داخل نفسي شتيمة

كالتميمة لتحمّل الألم: أركلوا يا أولاد القحاب فلن تأخذوا مني حقاً ولا باطلاً.

عدت إلى العنبر أنزف وكلّ شبر في جسدي يوجعني بشدة رهيبة. كانت أحذيتهم مدببة وكانوا بأحجام البغال. كان عبد الرحمن ورشيد مستمرّين في العمل وقد أرسلا لي إلى السجن في كل الزيارات عبر أمهات مساجين آخرين قفة مليئة بما يلزم.

بعد أربعة أشهر على سجني كان المبلغ الموفر قد وصل إلى حد غير متوقع.

انتهت مدة حبسي، عدت إلى الحي. كان مقرراً أن أختبئ بعض الوقت حتى تهدأ الأمور، فقد طعنت أخ عبد الرزاق صبيحة العيد مثلما طعنني عبد الرزاق قبل أن تعتقلني الشرطة. بعد ذلك، حين تكون الطريق سالكة، سنتوجه إلى عكراش لتصريف المبلغ كاملاً بودرة بيضاء.

ركبنا، عبد الرحمن وأنا، على الموبيليت وقصدنا عكراش بينما ظل رشيد ونعيمة بغرفة السطح. الشرطة عرفت أننا جمعنا مالاً كثيراً فكمنت لنا عند نهاية أرض ميساوة. كانت تراقب البيت ليلاً نهاراً بواسطة أعوانها غير المرئيين الذائبين في هواء الحي ومائه منتظرة خروجنا، بينما كنا نحسب الحساب فقط للعصابات الأخرى.

أوشكنا على تجاوز أرض ميساوة بدراجة الموبيليت. رصاصة خاطفة لا أعرف من أين جاءت، اخترقت صدر عبد الرحمن الذي كان يسوق. سقطت الدراجة وقد كانت سرعتها متجاوزة ستين كيلومتراً في الساعة. مات عبد الرحمن وفقدت الوعي بعد أن اصطدمت رأسي بحديد الدراجة. حدث كل شيء بسرعة فائقة.

كما لو في حلم. دون كثير ضجيج ودون إثارة كبيرة، كما لو أن عجلة الدراجة انفجرت فقط، كما يحدث بالضبط حين تجرب لأول مرة حبة القرقوبي.

حين فتحت عيني كنت داخل سيارة الشرطة رأسي تؤلمني ويدي شبه مشلولة. استولوا على المبلغ الذي كان غنيمة مفاجئة غير متوقعة لهم بعد أن اعتقدوا أنه سيكون مجرد مبلغ عادي لشراء بضاعة حشيش.

سحبوا جثة عبد الرحمن لاحقاً إلى سيارة أخرى حمراء جديدة في اتجاه مشرحة الأموات. كانت الشمس قد أشرقت حقاً بشكل واضح ومغرٍ بصيد السمك والسباحة في النهر. كنت مصفد اليدين بين شرطيين داخل سيارة السّتَافيتْ البيضاء حين استعدت وعيي كاملاً. كان أول ما شاهدته من زجاج نافذتها هو ذلك المشهد الساحر للنهر في الصباح الصيفي الباكر بزرقته الممتدة بصمت وهدوء وسكينة في اتجاه عكراش.

انتشر الخبر سريعاً داخل الحي. كان ذلك في صالح عصابة الشعبة التي ربما هي من وشى بنا. اقتحم خمسة من أفرادها بينهم عبد الرزاق بيت العجوز، قصدوا السطح. كان هناك رشيد ونعيمة ينتظران عودتنا لا يعلمان شيئاً عما حدث في العالم. استفردوا به، حاول مقاومتهم لكن ذلك كان بلا جدوى. أردوه قتيلاً بطعنات كثيرة، وحين صرخت نعيمة عالجوها بطعنتين. لم يعرفوا أن بطن نعيمة كان يخفي جنينا، لم يعرفوا أيّ شيء، فليس ضرورياً أن تعرف كل شيء في الحرب، كل ما عليك معرفته أكثر هو القدرة على

تسديد الطعنات قبل أن تسدد إليك.

لم تتدخل الشرطة، فقد كان من مصلحتها أن يختفي رشيد، وأن تتحكم أكثر في عصابة الشعبة، بل في الغالب هي من أعطت الأمر لتلك العصابة بالتنفيذ.

العالم كله في حالة حرب، وفي الحرب كل شيء مباح، ولحظات السلام العابرة التي تتخلله ما هي إلا الفسحة القصيرة جداً الممنوحة داخل الحرب للقناصين كي ينبطحوا أرضاً على بطونهم وينشّنوا جيداً قبل أن يصوّبوا. إنه باستمرار في حالة حرب، منذ الأزل، هذا هو ما يتوجب على السادة المسالمين الخنوعين الطيبين المحترمين الأفاضل معرفته وهم يحتسون داخل منازلهم الآمنة بعض الشاي الساخن، أو بعض المرطبات.

لم نصل ذلك اليوم إلى عكراش، ولم نجن مالاً، ولم نعبر الشارع الفاصل بين جحيم حيّ أبي رقراق، وجنة حي السويسي وحي بير قاسم وحي الرياض. بل وصلت فقط إلى هذه الزنزانة في أواخر هذا الصيف المرتخي. يشبه الأمر أن تتعب وأنت تسوق شاحنة عملاقة بين المدن، فتركن تحت أشجار ظليلة على رصيف بعيد لتستريح. هذا بالضبط هو ما أحسه الآن عميقاً. إني هنا فقط لأستريح في هذا السجن الرحب الظليل، قبل أن أواصل من جديد اعتلاء قمرة قيادة شاحنتي في اتجاه كل من يعترض طريقها.

يجب أن أفهم الآن فقط، كيف وصلت إلى هنا، كي يصير هروبي أسهل وأكثر حسماً. هل كان ممكناً أن أصل إلى مكان آخر؟ هل كان ممكناً أن أدرس الهندسة كخالي من داخل ذلك الحي؟ هل

كنت سأعتقل أيضاً ويموت رفاقي لو أني درست الهندسة؟ هل كنت سأصنع في غرفتي أنا أيضاً مكتبة من كتب الشيوعيين أدمن عليها كخالي عوض أن أدرس الهندسة، موقّعاً كلّ رسائلي الماركسية الرومانسية بـ: ما العمل؟ هل كنت سأنتهي في كل الأحوال إلى زنزانة وإلى إعدام؟ لقد لفقوا لي تهمة قتل خنفاش، شهوراً بعد موته وتحوله إلى شبح، وحكموا عليّ بالسجن ستة عشر عاماً، وهم لم يظلموني في كلّ الأحوال، لكنهم أيضاً لم ولن يكونوا أبداً عادلين، فقد قتلوا خالي رغم أنه لم يقتل أحداً، وقتلوا عبد الرحمن ورشيد، وقتلوا أمي، وقتلوا الهواء والماء، وقتلوا الجميع.

هل حالي الآن أفضل من خالي بما أني مازلت حيّاً رغم كل ما حصل، بينما لم يبق من خالي سوى مسودّات رسائله إلى رفاقه وإلى توريّة؟ لماذا مات أصدقائي الذين دافعوا عن حياتي ضد عصابات أخرى مراراً برجولة وشجاعة مثلما دافعت عنهم أنا أيضاً؟ وما الذي أوصلهم إلى ذلك الموت؟ هل كان بالإمكان أن يكونوا أشخاصاً آخرين؟ هل كان بالإمكان أن تُنبت شجرة الشوك غير الأشواك؟ كيف يكون بإمكاننا لوم بذرة الشوك التي لم تقترف أيّ ذنب سوى أنها أعطت ما بداخلها، قاومت من أجل أن تشق الصخر والحديد وتتبرعم، من أجل أن تراوغ الجفاف والخوف والرعب والحرائق وتنمو، من أجل أن تظهر الأشواك أخيراً خضراء يانعة دون ماء، قوية حادة ومعافاة.

هل أنا وعبد الرحمن ورشيد وخالي وعصابة الشعبة وباقي الحثالة هم بذور الشوك وبذاره وبراعمه وحصاده؟ هل كان

بالإمكان أن تحدث معجزة سماوية أو غير سماوية لنصير أشواكَ ورودٍ، وليس أشواك طلح وزَرَب وصبّار وحشيّ وفَناء؟ هل علينا الآن كما يعتقدون ويريدون لنا أن نندم لأننا لم نكن وروداً؟ من أين جئت؟ ومن أين جاء عبد الرحمن؟ ومن أين جاء رشيد؟ هذا هو ما يجب أن أتذكره الآن وسط هذه الزنزانة، متذكراً في عمقه أرواحهم وأحلامهم وضحكاتهم لأقاوم بها جدرانها الباردة، وعتمتها العمياء، وحديدها المصفح.

لا أحد أكلمه هنا ولا أريد أن أكلم أحداً. لكني أكلم نفسي دون صوت، بسرحاني الطويل فقط، وبعينيّ اللتين تبرقان في الظلام، وسأحكي لنفسي كل شيء من البداية. سأعيد تركيب جذور حياتي وليس براعمها التي أعرف أنها لم تزهر سوى بالأشواك. سأعيد الحفر في جذور حياة عبد الرحمن، وجذور حياة رشيد، وجذور جدران أكواخ الصفيح الصدئة داخل تراب حقل الأشواك اللامتناهي الحدود والأطراف ذاك. حقل الأشواك الذي يمكنك الوقوف مساءً على قمة هضبة جبل الرايسي حازماً يديك خلف ظهرك وتأمل امتداده العشوائي المتناغم الرهيب في اتجاه أفق حالم من الرصاص الحي والفوسفور والسلّ وطيور عَوّا الهزيلة.

حقل الأشواك الآدميّ المزدهر الذي يسقيه منذ الأزل نهر موحل. حي أبي رقراق، دَوَّارُ الدُّومِ القديم، بالأبيض والأسود فقط، ونهره الذاهب، بجثث أبنائه وأحلامهم وأسرار نسائه البدينات المسوّكات وقهقهات عجزته المخرفين ونباح كلابه الجائعة العادية ومواكب جنازاته الصامتة إلى مقبرة الصّدّيق عند الأصيل وزغاريد ولاداته

القيصرية الكثيرة وذكرياتهم جميعاً الأحياء منهم والأموات، العجزة المحتضرين منهم، والمواليد الصاخبين العراة، وبولهم جميعاً وخرائهم ودمهم النازف، إلى المحيط الأطلسي العملاق المتلاطم.

سأعيد تركيب قصة حياتي وقصة حياة عبد الرحمن وقصة حياة رشيد كاسراً بالذكريات عزلة هذه الزنزانة الضاغطة على أنفاسي، فلا شيء لديّ الآن هنا لأقاوم به هذا العماء سوى ذلك. مراد ورشيد وعبد الرحمن، البذور الشوكية السامة، التي سقطت ذات يوم عن أشجار شوك مزهرة وكان عليها هي أيضاً أن تزهر.

إني أتذكر ولا أكلم سوى نفسي، محاكماً من حاكموني، زاجاً بهم جميعا داخل زنازين أضيق من هذه. إني أكلم نفسي فقط، وكل ما أقوله بيني وبينها يمر بسرعة البرق غير خاضع لشروط الزمان والمكان بقدر ما هو خاضع فقط لزمنه الداخلي ومكانه الداخلي العميق المنطوي كسكين داخل أغوار نفسي. وكما في لمحة خاطفة بين الحياة والموت يمرّ أمام شخص شريط حياته الطويل كاملاً، يمر أيضاً أمام عينيّ الآن شريط حياتي كاملاً طيلة دقيقة واحدة فقط أنهي فيها سيجارة من هذه السجائر القليلة المتبقية في جيبي، أو طيلة ساعة فقط، أو طيلة يوم، أو طيلة الواحد والعشرين يوماً كاملة التي عليّ قضاؤها هنا في هذا القيء، أو طيلة حياتي.

لقد مات عبد الرحمن، ومات رشيد، أو بالأحرى قتلا، وخسرنا مالنا دون أن نجني مالاً، ولم نعبر الشارع الفاصل بين جحيم الحثالة وبين جنة النبلاء، ولم نصل أبداً ذلك اليوم إلى عكراش، وماتت أمي، ولا أعرف حقاً، إن كنت الآن حقاً، في هذه الزنزانة أتذكر حقاً،

أم أني سقطت من فوق الدراجة للتوّ بعد أن أصيب عبد الرحمن في صدره، وهناك أصداء طلق ناري ما زالت تطن في أذني وداخل رأسي، وداخل أعماقي، وقد اصطدمت رأسي قبل ثانية فقط بحديد الدراجة، وما هذا كله إلا شريط حياتي المصور الخاطف، يمر أمام عيني، وأنا بين الحياة والموت.

الطريق إلى عكراش

كان يشرب من قنينة الروج، دون كأس، وينظر إلى ساعة الحائط. قال إن نعيمة تأخرت ولم نجبه. نهض عبد الرحمن ليبول في السطل الذي في زاوية الغرفة، أعطانا ظهره وفتح سرواله. أنزله من الأمام فقط محاذراً أن يكشف لنا مؤخرته.

سمعت صوت شرشرة البول في السطل الحديدي، ثم صوت تقطعه، ثم صوت إبزيم حزامه الجلدي يغلقه وهو عائد أدراجه إلى مكانه على الحصيرة متمايلاً يكاد يسقط.

كنت قد شربت أكثر منهما بكثير، فقد بدأت الشرب مباشرة بعد أن استيقظت الساعة الحادية عشرة صباحاً تقريباً، بينما لحقا بي بعد العصر ومعهما مزيد من القناني. أردت أن أنهض إلى السطل لأبول لكن ذلك بدا لي مستحيلاً، لقد شلت قدماي تماماً وبدأت الغرفة بالدوران داخل رأسي كمروحة، وعوض أن أرى شخصين معي في الغرفة، رأيت عصابة كاملة من السكارى واللصوص يجلسون لصق جدران الغرفة دون أن يتركوا أي بقعة فارغة.

لم أتذكر أيّ شيء بعد ذلك.

حين فتحت عيني في الغد، كان المساء قد نزل فوق الحي، كان باب الغرفة مفتوحاً بحيث يظهر منه السطح وسلك الغسيل دون غسيل عليه، يدخل منه بعض الضوء الكئيب. لم أجد أحداً سواي في الغرفة، كنت أنظر بصعوبة بسبب انتفاخ عينيّ، شعرت ببلل في سروالي، وبقعة كبيرة من السائل تحتي، كنت أحسّها وسط نومي لكنني لم أكن قادراً على الاستيقاظ. انتبهت إلى كيس بلاستيكي كبير لصق الحائط، وإلى عدد من القناني الفارغة في الزاوية. الكيس البلاستيكي كان يحوي ثياب فتاة، والقناني فارغة كلها، لم أجد في أي واحدة منها حتى ما يملأ كأسا واحدة.

توجهت إلى صنبور السطح، فتحته وجلست تحته دقائق مستسلماً لإحساسي بالانتعاش. نزعت السروال الذي كنت أرتديه وحده دون تبان ودون قميص، علقته في السلك وقد صار ثقيلاً، لونه داكن، يقطر منه الماء بغزارة.

عدت إلى الداخل عارياً أبحث عن سروال. كانت عقارب الساعة الحائطية قد تجاوزت السابعة مساءً، جلست لصق الحائط ذي الصباغة القديمة المقشرة أحدق في الساعة، وعلى الحصيرة، قرب يدي، سكّينة كبيرة.

لاحظت لأول مرة أن تلك الساعة تتكتك.

قدّما لي نعيمة، مدت لي يدها بخجل، كانت ترتدي جلباباً وتضع دَرَّةً على رأسها. بدت امرأة أكثر منها فتاة. مدّ لي عبد الرحمن كيساً بلاستيكياً فيه سندويتش لحم رأس في خبزة صغيرة شممت رائحته قبل أن أفتح الكيس. سألته وأنا أعض السندويتش وأجده ما زال ساخناً:

- أين القناني؟

أجابني بحسم وهو يخرج بُولَةً من كرتوشتها ليركّبها عوض البولة التي احترقت البارحة ناظراً إلى السقف ببلادة:

- لن نسكر اليوم.

كانت نعيمة قد خلعت جلبابها ودرتها وأخذت تنظف الغرفة. أخرجت القناني الفارغة إلى زاوية في السطح وأفرغت السطل وطلبت منا الخروج من الغرفة لتكنس وتنشر الحصير وبعض الثياب على سلك الغسيل لتتهوّى.

ضغط عبد الرحمن على مفتاح الكهرباء فاشتعلت البولة. بدت نعيمة وهي تتحرك من الغرفة إلى السطح ومن السطح إلى الغرفة بتلك الحيوية وذلك الانسجام كأنها صاحبة البيت. تفرّست فيها جيداً على ضوء المصباح فوجدتها جميلة، إنها فتاة كما يبدو ذلك واضحاً الآن دون جلاَّبَةٍ ودَرَّةٍ وليست امرأة. رشيقة ومكتنزة ومؤخرتها بارزة من تحت قميصها المنزلي المزوّق بحبات كرز صغيرة.

خرجنا عبد الرحمن وأنا لنلتحق برشيد الذي جلس منذ البداية في زاوية السطح اليسرى المسقفة بغطاء كخيمة. أمامه طَابْلَة خشبية دون غطاء وكرسيّان غير متشابهين دون مسند ظهر وصندوق يتخذ كرسياً كما يتخذ خزانة أيضاً وبُوطَة صغيرة زرقاء وبعض الأواني والمواعين.

كان منهمكاً في تقصيص الْكيفْ، بسكين جيب صغيرة تطوى، مستغلاً ما أمكن آخر ضوء المساء.

وقفت لصق الحائط أطلّ على الحيّ الصفيحي العملاق. وجدته من ذلك العلو، في ذلك المساء الصيفي الطويل الهادئ، لا نهائياً،

حزيناً، مهيباً، وتنبع منه طاقة الموت والفناء أكثر مما تنبع منه طاقة الحياة رغم كثافته السكانية الهائلة، وتشابك أكواخه وبَرَارِيكه على مدّ البصر، وخصوبة سكانه وضجيج أطفاله اللانهائيين.

شعرت بانتماء كامل لذلك الحي، بامتداد له في أعماقي منذ ولادتي فيه في تلك البقعة المحروقة التي كنت أراها من هناك إلى تلك اللحظة بجذور قوية متشعبة عصية على الاقتلاع أو التمزق غير مرئية لي ولا لأيّ شخص آخر.

كنت دائماً أقاوم داخلي أي إحساس ساذج كهذا قد ينتابني، وفي تلك اللحظة بالذات كان عليّ مقاومته أكثر، إدخال يدي بقوة في بطني وانتزاع كل تلك الجذور وانتزاع كل عاطفة معها، اقتلاعها دفعة واحدة عاضّاً بقوة على أسناني، وقذفها بعيداً في الهواء. كمن ينتزع رصاصة من صدره.

شيء واحد فقط كان يجب أن يظل نصب عيني: ذلك المكان هو أكبر تجمع في العالم للحثالة، وأنا واحد من أولئك الحثالة، والقراءة الكثيرة لكتب خالي وكتب أخرى على ضوء الشمعة منعكسة على دموع أمي في غرفة كوخ مليئة بالصراصير وبُوستيرات الممثلات العاريات وعارضات الأزياء على جدرانها لم تزدني سوى إيمان بذلك وإحساس أعمق بأني أحد صراصير ذلك الكوخ، وصراصير هذه البلاد، وصراصير هذا العالم.

كانت نعيمة قد وضعت ماءً في الغلاي ووضعته فوق البوطة وجلست على كرسي، وكان صوت البوطة مسموعاً كفحيح متواصل بحيث منح للمساء حيوية مفاجئة، إضافة إلى انهماكهم في حوار وقد

مد عبد الرحمن شمعة إلى لهب البوطة حتى اشتعلت وثبتها وسط الطابلة.

كنت أراهم من هناك وأرى خيالاتهم الشبحية وأسمع بضع كلمات تصل إلى أذني دون جُمل. حافياً في زاوية السطح اليمنى، لصق الحائط، مرتدياً السروال وحده، أطلّ بعيداً بعيوني فقط دون أن أكشف وجهي للخارج، محاولاً تبيّن زرقة النهر البعيد الذي خلف الحي في عتمة المساء، وقد بدت داكنة تلك الساعة إلى ممتزجة بالكامل بدكنة أول الليل، وبدا الحي رهيباً أكثر، وداكناً، ومتداخلاً أكثر كدغل، ومضاءً هنا وهناك بنقاط ضوء صغيرة وباهتة، من شموع ومصابيح يدوية ولمبات، ويشوبه رغم ذلك هدوء وسكينة وانسجام واطمئنان غريب.

حدقت فيهم جيداً، كان رشيد ما زال منهمكاً في تقصيص الكيف خافضاً رأسه، وعبد الرحمن ممسكاً السبسي في يده يملأه ويشعله بوقيد الشمع، ونعيمة تقشر خضاراً وتضعها في كَاسْرُولَة مليئة بالماء.

خمنت وأنا أتفرس فيهم وفي حركاتهم جيداً وبعمق أنهم حثالة بالفعل، كما أحسستها بنفس العمق حيال نفسي أيضاً وأنا أقف بتلك الطريقة داخل ذلك المصير المظلم لحياة تكاد تنتهي بقدم ثابتة في الوحل، وأخرى ثابتة على الحافة.

خمنت أن الخطة يجب أن تنجح هذه المرة بأي طريقة، حتى وإن بقيت وحيداً، حتى وإن تخليا عني، حتى وإن أثبتا لي كما بتّ أعتقد الآن أكثر أن حثالة البشر لا يمكنها أبداً أن تمنح سوى

البؤس والموت والخديعة والخراب، حتى وإن خدعتهما أنا قبل أن يخدعاني، حتى وإن متّ.

جلست على الصندوق في وضعية من يركب دابة. مدّ لي عبد الرحمن السبسي مشتعلاً، أخذت منه نفسين متتابعين وأفرغت ما بقي فيه من رماد بعيداً في السطح بنفخة.

قدّم لي عبد الرحمن نعيمة على أنها فعلاً حَاذْكَةْ، وأنه يجب أن يبحث عن بنت ناس مثلها لتعتني به وبذلك السطح كل يوم. ظلت نعيمة تقشر حبة بطاطا في يدها خافضة رأسها أكثر مع ابتسامة وقد بدا أن إطراء عبد الرحمن قد أخجلها. مسح رشيد السكين في سرواله الجينز، طواها وأدخلها في جيبه مادّاً رجله تحت الطابلة ليتسنى له بذلك إدخالها بالكامل. بدت أمامه كومة الكيف المقصص كبيرة، شبيهة بهضبة حناء أمام عروس. مددت له السبسي وقد طلبه بنظرة، ملأه وأشعله وأخذ منه نفساً عميقاً، كتمه ثوانيَ داخل رئته قبل أن ينفخه من فمه ومنخاريه في سحابة كبيرة حادة الرائحة.

واصل عبد الرحمن وهو يغمز لي متهيئاً لضحكة مجلجة:

– رشيد سيصبح أباً بعد شهور قليلة، تصور ذلك، رشيد؟... أباً؟...

ثم أطلق ضحكته المجلجلة المعهودة غير المسؤولة.

نظرت في اتجاه رشيد، وفي اتجاه نعيمة، لم يضحكا ولم أضحك فكفّ عبد الرحمن عن ضحكه.

قال رشيد موجهاً الكلام لي:

- عبد الرحمن معه حق، نعيمة حامل، في شهرها الرابع، بعد أسابيع سنتزوج. مدّ يده إلى مذياع صغير وجده قرب قدمه، سأل عبد الرحمن وهو يدير مفتاحه عبثاً:

- هل يعمل هذا المذياع؟

أجابه عبد الرحمن:

- لا.

سأله من جديد وقد بدا متحمساً لسماع موسيقى أو لسماع الأخبار أو فقط لتغيير موضوع الحديث عن نعيمة:

- تنقصه بطارية؟

أجابه عبد الرحمن بالقطع:

- لا، إنه معطل بالكامل.

أخرج رشيد سكينه من جديد، فتحها وبدأ بفك براغي المذياع برأسها.

قال عبد الرحمانِ وهو ينهض ليحضر شيئاً من الغرفة:

- إن أصلحته عَكِّرْ لي.

وقهقه دون أن يكون ما قاله مضحكاً، رافعاً وجهه إلى السماء، فاتحاً يديه أثناء مشيته كطائر يقلع وقد لعب الكيف بدماغه. اختفى ثواني ثم انبثق من جديد من الغرفة راقصاً بطريقة مضحكة هذه المرة ليجلس وفي يده قلم ومذكرة حسابات صغيرة يلوّح بها أمام عيوننا.

حين تفرست في نعيمة على ضوء المصباح قبل ساعة لم ألاحظ أبداً أنها حامل، لكن جلبابها الفضفاض ووجهها داخل الدرة

وخجلها، ثم بعد ذلك انهماكها الكامل بتلك الطريقة في توضيب الغرفة ونشر الحصيرة والملابس في السطح وغسل الأواني وشرود نظراتها، كانت كلها تشي أنها تخفي شيئاً كهذا.

خمنت أننا الآن قد صرنا خمسة أشخاص على متن هذا السطح عوض أربعة فقط.

أخذنا نشرب الشاي وندخن الكيف ونخطط على ضوء الشمعة وضوء المصباح القادم من باب الغرفة، بينما كان العشاء في وعاء صغير فوق البوطة يقبق دون غطاء مطلقاً رائحته الأنثوية الشهية في السطح بكامله. طوى عبد الرحمن المذكرة ووضعها في جيبه بعد أن سجل فيها رشيد رقم مبلغ وسجل تحته عنوانين.

بعد العشاء، رشيد ونعيمة سينامان في الغرفة كزوج وزوجته حتى الصباح، أما عبد الرحمن وأنا فسنظل في السطح. علينا الخروج قبل الفجر بقليل، في عتمة الليل الأخيرة، للتوجه إلى عكراش. فتلك هي الساعة الوحيدة التي يفرغ فيها الحي تقريباً، قبل الأذان، وقبل بدء تقاطر المصلين كأسراب نمل على الجامع. لن نجد سوى بعض السكارى الذين لن يعود بإمكانهم لشدة السّكر تمييز من نحن.

منذ ثمانية أيام وأنا مختبئ في ذلك السطح، آكل وأشرب وأسكر وأبول في السطل أو في ماسورة الصنبور وأعود لأستلقي على الحصيرة على ظهري أفكر وأتأمل وأخطط. لم تعد حياتي آمنة هنا أكثر من السابق بعد خروجي من السجن. عصابة الشّعْبَة تتربص خروجي لا محالة طالبة ثأرها. أنا مستعد لذلك، فأنا أيضاً لي عندهم

ألف ثأر، لكن ليس الآن على الأقل. يجب أن أتفادى الاحتكاك بأفرادها ما أمكن فالانتصار عليهم كالهزيمة أمامهم لا ربح فيه. لقد تغيرت كثيراً، لم أعد كما يظنون وكما يعيشون متبادلين الطعنات بينهم ناظرين فقط إلى أنوفهم، بل الجناية المحترمة في نظري الآن هي التي تكون من أجل شيء كبير، من أجل مال كثير أو سلطة أو جاه وليس جناية لصوصٍ حافظات نقود النساء وملابس الغسيل أو جناية سكارى مفلسين ضد بعضهم.

لا أحد يعرف منهم أني حرّ الآن، ولا أريدهم أن يعرفوا ذلك أبداً. إن كنت سأتلقى طعنة في بطني أو في ظهري ذات يوم كما هو أكيد فلتكن مقابل حياة أخرى. وإن كنت سأغرق ذات يوم في نهر أو في بحر كما يحدث كل يوم تقريباً لأبناء هذا الحي في نهر أبي رقراق أو في المحيط الأطلسي، فليكن ذلك في مضيق جبل طارق بين طنجة وإسبانيا حيث يكون للغرق في المتوسط ذي المياه المنعشة الصافية، ثمن الحلم بالظفر بحياة أخرى أفضل، في قارة أخرى.

أحضر عبد الرحمان بطانيتين مهترئتين لهما نفس اللون الداكن كبطانيات السجن، واحدة له وواحدة لي، وهو يتثاءب. كل واحد فرش نصف بطانيته وتغطى بالنصف الآخر. كان الطقس جميلاً والنجوم فوقنا متلألئة في السماء وصوت صرار الليل في مكان ما غير محدّد حوّل الصمت والنجوم وشساعة السطح وظلال ثياب سلك الغسيل على الأرض إلى موسيقى.

سرعان ما نام عبد الرحمن وبدأ يشخر شخيراً متقطعاً. كان

وجهه يبدو على الضوء القليل للنجوم بريئاً مفرغاً بالكامل من أي تعابير عن الحياة ولا عن الموت رغم امتلائه بخدوش كثيرة قديمة وطعنات وسِيكَاتْرِيسَات، سوى تعبير واحد ثابت هو تحفز ملامحه الدائم للأكل وللشرب وللجماع وللهو ولسماع نكات جديدة بذيئة أو حكيها.

لم أستطع النوم لأني نمت طيلة النهار. ظلت الذكريات والهواجس تنتابني وأنا أتقلب في مكاني محدّقاً في النجوم. تذكرت حكايات كثيرة، حكاية حياة عبد الرحمن وحكاية رشيد وحكايتي. ضجّ دماغي بتفاصيل كثيرة بشكل وسواسيّ. دخنت حفنة كاملة من الكيف ولم أنم. كان نوم عبد الرحمن متواصلاً، وشخيره يكف لحظة ليتواصل من جديد، وصرار الليل لم يتعب من العزف الذي بدا صاخباً أكثر وحاداً ومزعجاً حين جنّ الليل.

لم أسمع أيّ حس آتٍ من الغرفة، كنت أخمن أني سأسمع وَحْوَحَةَ نعيمة حين يضاجعها رشيد، تخيلت ذلك وتخيلتها عارية فانتصب قضيبي بسبب الأرق. تذكرت، دون أن أستطيع السيطرة على ذلك بوعي كامل، حجم مؤخرتها وصلابتها وتَدلّي نهديها حين كانت تنحني لتكنس أو لتلتقط شيئاً. تذكرت الكرزات على ثوبها وبياض ساقيها المشدودتين فتخيلت بياضاً مضاعفاً لما كان مغطى بالثياب لا تصله الشمس. مددت يدي إلى قضيبي داخل السروال وعالجته بتمسيده جيئة وذهاباً برفق حتى قذفت فوق بطانية رشيد المهترئة ومسحت رأسه بها فارتخى واستكان واستراح. شعرت بعدها مباشرة بتأنيب ضمير أني اشتهيت رفيقة

صديقي التي ستصبح زوجته عما قريب. فكرت أنه يجب عليّ أن أتزوج حين أخرج من هذا الجحيم بفتاة ليست من هنا، فبعد وفاة أمي لم يعد أحد يهتم بأمري، وتذكرت أثناء ذلك مباشرةً أيضاً وبتداخل، أن مهمة خطيرة تتبعني عليّ إنجازها بعد ساعة، وكان أرقي قد خفّ قليلاً عكس قلقي الذي استيقظ، فغالب النعاس جسدي بينما ظلّ عقلي يفكر بقلق دون أن أستطيع السيطرة عليه أو أن يستطيع السيطرة على ارتخاء جسدي، فلم أتذكر شيئاً بعد ذلك من اليقظة ولا من النوم سوى ما رأيته من كوابيس.

لا أدري كم نمت بالضبط، دقيقة أم ربع ساعة أم نصف ساعة، أم ساعة كاملة أم ساعتين أم أكثر؟ كان نوماً مضطرباً للغاية رأيت فيه أحلاماً غريبة مخيفة، وسمعت داخله نباح كلاب ونداءات رشيد وهو على ضفة النهر الأخرى ينادينا أنا وعبد الرحمن لنسبح في اتجاهه وننقذه لكننا ظللنا نقهقه فلم نرَ شيئاً يستدعي إنقاذنا إيّاه ولا نداءه علينا بتلك الطريقة المفجوعة وعيناه جاحظتان:

- مراااد... عبد الرحماااان... مراااد... عبد الرحماااان...

استيقظت من هذا الكابوس بصعوبة فكان رشيد واقفاً بباب الغرفة ينادينا. وضعت يدي على جبيني كحافة قبعة لأتبيّن ملامحه وأنا بين اليقظة والنوم، هل يقف على ضفة النهر أم عند الباب؟ خاطبني بقلق وقد امتزج صوته بنباح كلب ضال قادم من أعماق الحي:

- ما زلتما نائمين كالموتى؟ ستشرق الشمس بعد قليل، أيقظْ عبد الرحمن.

مددت يدي ولكزت بها عبد الرحمن بقوة في بطنه ليستيقظ. لن يستيقظ حتى لو ناديناه مليون مرة، حتى لو صرخنا في أذنه.

جفل مذعوراً معتقداً أنها النهاية.

كان أمامنا وقت قصير لنخرج. فتحت الصنبور ووضعت رأسي تحته، كان الماء قد برد أكثر في غياب الشمس، أحسست بانتعاش رغم الألم الذي كان ما زال حادّاً داخل رأسي، وشربت كثيراً من الماء.

مسحت شعري ووجهي في قميص كان معلقاً على سلك الغسيل ولبست قميصاً آخر كان قد جفّ. كانت الخطة تقتضي أن ألبس جلّابة نعيمة ودَرّتها كي لا يعرفني أحد. مدّ لي رشيد الجلاّبة، لبستها بسرعة وأدخلت يدي في أكمامها. بدت قصيرة جداً مثيرة للشبهة أكثر. كانت أنصاف ساقيّ وساعديّ تظهر منها برعونة جالبةً الانتباه. خلعت الجلاّبة دون أن أقول شيئاً ودون أن يقولا شيئاً. أعدتها لرشيد وقد شممت فيها رائحة عرق نعيمة التي كانت ما تزال نائمة أو متناومة في فراشها، رائحة خفيفة مختلفة عن رائحة عرق عبد الرحمن الفجة. قررت أن أخرج بثيابي دون حاجة لأيّ تنكر. دخل رشيد وخرج وهو يرتدي الشورت فقط وعلى كتفه وركبته تظهر آثار ندوب سكاكين دون آثار خياطة. مدّ لي سكيني الكبيرة، تلمست شفرتها بإبهامي فوجدتها حادة كما يجب. تبادلنا رشيد وأنا نظرة ذات معنى، أخفيت السكين داخل حزامي من الخلف وغطيتها بالقميص. مدّ لنا حزم المال ملفوفة في أحد مناديل نعيمة، قسمناها إلى قسمين إمعاناً في الحذر، قسم

أخفاه عبد الرحمن داخل ثيابه والقسم الآخر أخفيته داخل ثيابي، بهذه الطريقة إن ضاع جزء أو سُلب سنحمي الآخر.

نزلنا الأدراج عبد الرحمن وأنا. سبقني إلى الخارج ساحباً المُوبِيلِيتْ الصفراء من قرونها من كراج صغير قرب الباب. صعد فوقها وأدار دواستها بحرفيةِ سيكليس قديم حتى اشتغل المحرك والضوء محدثاً زعيقاً رهيباً. ركبت خلفه وانطلقنا متمايلين بها في الزقاق المترب. نظرت فوق في العتمة فرأيت شبح رشيد يراقبنا من السطح.

كان الفجر قد أذّن والمارة سيكشفونني لا محالة. كنت أخفي وجهي ما أمكن يميناً أو يساراً أو بظهر عبد الرحمن. كانت هناك جماعة من السكارى تقف في مدخل الحي لا بد أن نمر بجوارها، يسدّدون أضواء البِّيلْ في اتجاه أيّ حركة أو صوت. تعرفوا على الموبيليت وعلى عبد الرحمن من بعيد فسلم عليهم بصوت مرتفع رافعاً يده عالياً، ممازحاً أحدهم، وقد ضاعف السرعة أكثر، بينما استدرت إلى الجهة الأخرى ويدي مستعدة لتلقف السكين من قبضتها. ربما أحدهم تعرف عليّ، وربما شربوا المقلب.

تجاوزنا الحيّ مسافة فاقت مائتي متر، بلغنا مبنى محولات الكهرباء المعطل، لكن الخطر كان لا يزال محدقًا. بلغنا الشّانْطي المعبّد دون رصيفين، رفع عبد الرحمن السرعة أكثر وبدأ يغني متمايلاً بالموبيليت داخل الشانطي الفارغ.

كان من المخطط أن نفطر في عكراش، لكن عكراش كانت لا تزال بعيدة، سنحتاج إلى ساعة على الأقل كي نبلغ المكان الذي

نقصده قرب السدّ.

سألت عبد الرحمن:

- هل معك سيجارة؟

لم يسمعني جيداً، بسبب هدير الدراجة الحاد المتواصل وبسبب الريح التي كانت عكس صوتي وبسبب غبائه الشديد. اضطررت إلى أن أعيد سؤالي صارخاً خمس مرات أو ست مستعملاً يدي قرب فمي كبوق ليسمعني.

أخيراً بعد عناء سمعني، أجابني:

- لا.

ظلت الدراجة تهدر في الطريق الفارغة اللانهائية المتجهة إلى عكراش. لم تظهر الشمس بعد لكن حلكة الليل زالت بما يسمح برؤية شبحية للسماء وللشانطي وللحقول الجرداء المترامية يميناً، حقول منبسطة لا تنتهي بأيّ شيء، ولا علامات بينها تدلّ على حياة سوى نوادر التبن المتموضعة على مسافات متباعدة جداً، ورسوم طَلَليّة لبيوت بعيدة منعزلة عن بعضها بهكتارات كثيرة، ونباح كلب واحد بعيد جداً لا يتوقف شبيه بأنين غامض لكل تلك الأرض وتلك الحقول. لا شكّ أنه مربوط أو مصاب إصابة بليغة أثناء الليل أدت به إلى ذلك السّعار.

إنها أرض ميسَاوَةْ التي سحبنا إليها جثّتيْ صبيّيْ عصابة الشعبة، أرض موت محوّم موازية للنهر أميالاً كما سمعنا عنها دائماً من بعيد. أرض فلاحين مستوحدين يكرهون الضيوف والغرباء. لا يبرحون أرضهم إلا لبيع محاصيلهم في سوق الرَّحْبَة الكبير، ولا

يدخل أراضيهم دخيل إلا ويخرج منها محمولاً على نعش.

ذباب أزرق كثير يطنّ فوق تلك الأرض الشاسعة، وصرخات شبحية كثيرة لقتلى بلا قبور ولا شواهد يقول الجميع إن بإمكان أي واحد سماعها إن كانت له شجاعة التوغل داخل تلك الأرض ليلاً أو حتى نهاراً، والعودة منها حياً.

تلك الأرض الغامضة ظلت وقتاً طويلاً مهرباً مناسباً لعصابات حيّنا، يختفون داخلها شهوراً، بينما يشاع بين الناس أنهم هجروا البلاد أو ماتوا، إلى أن تهدأ الأوضاع، وتنسى الشرطة حساباتها أو تتناساها فيبعثون من جديد من قبور النسيان كالأشباح بالمُدى والسواطير في أيديهم.

كنا نتوغل أكثر بالدراجة في ذلك الصباح عبر الشانطي الخاوي في تلك الأرض الهاجعة بحماسةٍ كبيرة، وإصرار كامل على الحياة، على تسلق جدران الحفرة العملاقة الزلقة بأظافرنا وأسناننا من أجل الخروج منها إلى ضوء الشمس وضوء الحياة، دون أن نعرف أن الموت كان يحوم فوقنا، دون أن نحدس أن القناصين كانوا ينتظرون اقترابنا من عدسات أسلحتهم المكبّرة كما تقترب أسراب الطيور من بنادق صيّاديها. لم نكن نعرف أبداً أن أرض ميساوة قد نادت أرواحنا مثلما نادت أرواحاً كثيرة لتسكنها، لم نكن نعرف أبداً ولم نكن نصدق حقاً ما كان يقوله الأجداد عن شؤم تلك الأرض ولعنة تلك الحقول. لكن الموت كان يحلق حقاً كنسر قَمّام فوق الشانطي المقفر الذي اخترناه طريقاً لحياتنا، ودراجتنا كانت تهدر تحت جناحيه مباشرة كالطريدة، بإصرار كامل على المقاومة

والبقاء، متقدمة كعَلَقة حتى النهاية في اتجاه عكراش.

كانت هناك عصافير في ذلك الصباح الباكر الجميل قد استيقظت، وبدأت بالزقزقة لإيقاظ باقي العصافير. كان يتوجب عليها هي أيضاً أن تطير في تلك الأرجاء طيلة حياتها، بحرية وحذر وفتنة، باحثة عن قُوتِها الشحيح، وعن أوكار جديدة ومخابئ تصلح أعشاشاً.

أعشاش داخل أشجار الشوك

عبد الرحمن يستطيع الحساب بشكل جيد كصاحب دكان، وكتابة الأرقام والرسائل الكلاسيكية السْتُوندار التي تبدأ بـ: "سلام تام بوجود مولانا الإمام، اشتقنا إلى النظر في وجهكم العزيز وبعد، العائلة كلها من كبيرها إلى صغيرها من شيخها إلى رضيعها تبلغكم السلام..." الخ.

طُرد من المدرسة الابتدائية، بالضبط من القسم الثاني كما يحكي دائماً بفخر. كان غبياً بشكل غير مطاق بالنسبة للمعلمين فطردوه. وضعت له المعلمة آذان حمار بالورق على رأسه، وسبورة صغيرة معلقة على صدره كُتب فيها بطباشير أحمر قان: حمار.

طافوا به كل أقسام المدرسة بتلك الهيئة، ضحك الجميع لمرأى آذانه الطويلة ومشيته المرتبكة وهو يقدم نفسه للمعلمين والتلاميذ على أنه حمار.

كان ذلك هو آخر يوم له في المدرسة.

بعثته أمه إلى سيكْليسٍ خارج الحي، ينفخ عجلات الدراجات العادية والنارية بفمه ويعالج ثقوبها بعد أن يكتشف تلك الثقوب

بغطس العجلة منفوخة في نصف قربة مليئة بالماء، ثم يمسح الدراجات الصدئة بإسفنجة عليها بعض التَّايْد حتى تبرق. يقوم بكل أعمال السخرة الخاصة بالورشة بما في ذلك جلب الحشيش والشراب، ويتلقف بخده المبقّع بالكدمات والدمامل والثآليل كل صفعات المْعَلّمْ الطائشة. مساء يشم السِّلْسْيُونْ خلف دفء جدار الفران في جورب أو في خرقة حتى لا يبقى يتذكر طريق عودته إلى البيت.

يقول دائماً إنه لم يكن غبياً ولا كسولاً، فقد حفظ الحروف وكان قادراً على تهجّيها وتهجي كلمات صعبة. وحتى بعد خروجه من المدرسة ظلّ يلتقط أوراقاً ملقاة في الشارع عليها كتابة ويستطيع قراءتها وفهمها بسهولة وإعادة كتابتها في البيت في أوراق بيضاء. يقول إن سبب الطرد كان شيئاً آخر، إن زوج المعلمة كان من عائلة أمه عبر نسب بعيد (رائحة الشحم في الشَّاقُورْ)، ابن خالِ خالِ خالها أو ابن عمِّ عمِّ عمها، وإنه كان قد طلّق المعلمة بعد أن أتى على مبلغ كبير من المال كانت قد جمعته سنوات من الكد والتقتير من أجل شراء شقة في عمارة وخانها مع شيخَةْ.

حين علمت المعلمة بتلك القرابة بين زوجها وبين الطفل عبد الرحمن رغم أنها قرابة بعيدة وغير أكيدة انتقمت منه بتلك الطريقة.

في حقيقة الأمر لم تكن لعبد الرحمن أي قرابة لا بعيدة ولا قريبة بزوج المعلمة، ولم يسبق له أبداً أن رأى أباه، ولا أن رآه أحد من قدماء سكان الحي من الشيوخ. الجميع يقولون إنه بلا أب، فقد جاءت أمه إلى الحي حاملاً به طريدة أو هاربة من حيّ آخر أو مدينة أخرى على

ما يبدو، دون أن يعرفوا لها أبداً أيّ أصل ولا فصل.

كان الحي يعجّ بنساء كثيرات من ذلك النوع جئن حوامل من أماكن ومدن مجهولة. يغيّرن أسماءهن ويبدأن داخل الحي حياة جديدة منقطعة بالكامل عن الماضي. يكترين غرفاً في أكواخ ويشتغلن في الدعارة الرخيصة تحت حماية قوّادات يؤمّنّ لهنّ الطعام والمبيت والسترة. القوادات أيضاً يشتغلن تحت حماية عصابة كاملة أو مجرم خطير واحد يؤمّنُ حيزاً كاملا من الأكواخ بسيف.

حين وصلت أم عبد الرحمن إلى مدخل الحي كانت تعرف إلى أين هي ذاهبة بالضبط، فخلايا الدعارة في الحي أصبحت لها أذرع أخطبوط خارج الحي، تتصيد طرائدها في محطات الكيرَان وفي مقاهي الاستراحات بين المدن وفي الحانات الرخيصة لترسلهم بتوصية إلى عنوانٍ ما باسم قوادة أو عصابة ما داخل الحي.

اشتغلت منذ وصولها، ملبية طلبات الزبائن وبطنها منتفخة بالحمل.

بعد أن أنجبت عبد الرحمان كان أغلب سكان الحي قد نكحوها.

بعد شهور من العمل الدؤوب برفع رجليها للزبائن باختلاف أشكالهم وألوانهم وأمزجتهم وأعمارهم وأحجامهم ونزواتهم وروائحهم النتنة، فأغلبهم لا يستحّم أبداً، فرج الله أخيراً كربتها كما كان يقال بلغة القوادات فتزوجت.

كان بًّا عبد المجيد قد بدأ بالتردد عليها أكثر من مرة طالباً بعض المتعة. كان وحيداً قد تقوّس ظهره قليلاً وضعف نظره بعد أن ماتت زوجته حزناً على غرق ثلاثة من أبنائها في النهر، فأخذ يحدث نفسه

أحياناً بصوت مرتفع في الطريق الغاصة بالناس غير منتبه لذلك. كان صياداً، يجدف بفلوكته من قنطرة سلا يساراً حتى الفَخَّارَةْ يميناً، ومن الفخارة حتى قنطرة سلا قاطعاً كل تلك المسافة التي تُرى بدايتها ولا ترى نهايتها، منساباً مع التيار مرة نزولاً ومرة صعوداً طالباً أسماك البوري.

الشراب الذي كان شائعاً في تلك الأيام الغابرة في الزمن هو الْمَاحْيَا، وهو شراب يصنع يدوياً بتقطير التين المجفف، إضافة إلى شراب الروج المصنع في قناني بلاستيكية خضراء مستطيلة متدرجة التموجات في ملمس اليد كفَرَّاكَة التصبين، لذلك كان يسمى بـالفرّاكة.

في الغالب يسكر عبد المجيد بالماحيا فقط، فهي شراب مثالي، قوي ورخيص ومدة سكره طويلة جداً إلى لا نهائية. كما أنها تباع في كل مكان في الحي في قَرَبٍ سعتها خمسة لترات أو بالتقسيط في أكياس بلاستيكية، بحيث يمكنه شراء حتى خمسة فرنكات ماحيا إن أراد ذلك، كما يمكنه أيضاً تقطيرها في كوخه وشربها بالمجان.

لكنه كان كلما وُفّق أكثر في الصيد وباع كل ما اصطاد، اشترى فرّاكة ليرفه بها عن نفسه رغم ثمنها المرتفع كثيراً مقارنة بالماحيا، فينسى وحدته وفقدانه زوجته وأبناءه رافعاً عقيرته بالغناء وسط النهر في ظلمة الليل. ومن بعيد، عند الضفة في السكون الكامل والصمت المطلق، يُسمع، بالإضافة إلى صوته المبحوح بالكيف والشراب، صوت أغنية شجية قادمة من مذياعه ذي البطارية الواحدة إضافة إلى صوت ضربات المجاديف متواتراً في الماء كلازمة، ويُرى من هناك

ضوء شمعته المحمية عن الريح بنصف قربة يبتعد متلألئاً رويداً رويداً حتى يبلعه الظلام والصمت والوحشة بالكامل.

بعد مرور شهور عن وفاة زوجته، أمسى يبيت أحياناً داخل فلوكته فلا يغادر النهر إلا بعد أيام. ساءت حاله أكثر، إذ لم يعد يجد من يعتني به بعد عودته من النهر. أدمن الشراب أكثر وأهمل تنظيف الكوخ بشكل كامل حتى أصبح أسوأ من مزبلة الحي.

ذات مساء وقد اصطاد أسماكاً كثيرة، أكثر مما اعتاده، تحسن مزاجه قليلاً. ربط فلوكته عند الضفة وصعد وفي يديه سلتان من الحجم الكبير مليئتان عن آخرهما بالبوري. كان يحملهما بصعوبة مما اضطره للاستراحة كل مرة بوضعهما أرضاً وأخْذ نفس من الهواء. كان في سلة منهما فوق البوري الراديو الصغير مشتعلاً صادحاً.

باع سلة في الطريق بالجملة لمن سيبيعها صباحاً بالتقسيط. اشترى طعاماً أكثر من حاجته وشمعاً ثم عرّج على بائع خمور في زاوية مظلمة ناوله فراكة أخفاها داخل ثيابه.

في الكوخ ارتدى ثياباً أخرى جافة وأقل اتساخاً، مشط شعره بيده بعد أن بلل كفها ببعض البصاق وفتح الفراكة ليأخذ منها جرعة طويلة قبل أن يغلقها.

كان قد عزم على أمر لم يسبق له أبداً القيام به طيلة أربعين سنة من الزواج.

حمل سلة البوري وقصد كوخ القوادة. ناولها السلة كاملة ولم يقل شيئاً فقد فهمت قصده من ذلك. قلّبت السمك بيدها داخل السلة بابتهاج ونادت بأحرّ صوتها:

- سليمة... سليمة... سليمة...

كانت سليمة هي أم عبد الرحمن، وكان عبد الرحمن ما زال متقوقعاً على نفسه داخل بطنها لا يعي شيئاً مما يحصل.

ظلت سليمة واقفة مسافة مترين عنهما بينما لم يستغرق تفاوضه مع القوادة أكثر من دقيقة. قانون العمل المتعارف عليه هو أن يدخل الزبون رفقة فتاة إلى غرفة من الغرف التي جدرانها عبارة عن ملاءات أو إزارات فقط، يقضي غرضه ويخرج مغادراً إلى حال سبيله وهو يغلق سحّابة سرواله.

لكن عبد المجيد طلب أن يصطحب سليمة إلى كوخه ملتزماً أمام القوادة بعودتها صباحاً وبعدم حدوث أي مشاكل. كانت القوادة تعرفه جيداً وتعرف زوجته المرحومة وأبناءه الذين غرقوا وتعرف كل شيء عنه فهو جارها منذ سنوات طويلة، والأهم من ذلك كانت الأسماك كبيرة وكثيرة في السلة، فوافقت.

كي لا يثيرا انتباه الفضوليين سبق عبد المجيد سليمة بأمتار متحفزاً أثناء مشيته وتبعته كأن كل واحد منهما يقصد سبيلا. ترك لها باب الكوخ مفتوحاً، تلفتت يميناً ويساراً ثم دخلت وأغلقت الباب.

كانت رائحة الكوخ شبيهة تماماً برائحة النهر، فهناك كثير من الطمي في كل مكان، وحراشف البوري ورؤوسه، ومجاديف مكسورة، وبقايا شباك وقصبات وصنانير، وقِرب فارغة وأخرى مليئة بماء النهر أو بالبول، وقناني فراكة مليئة بمياه للشرب، ومجمر لشواء السمك، وحطب ورماد وسخام أسود في السقف وفي كلّ مكان، إضافة إلى فوضى كاملة من الثياب المتسخة المكومة فوق

بعضها في هضبة، ورائحة رطوبةٍ وجرذانٍ وخراءٍ قديمٍ قادمة من مكان مجهول.

كان عبد المجيد سعيداً بحسها داخل الكوخ يتحرك بطريقة رعناء مجنباً الأشياء عن طريقه محاولاً إيجاد مكان لها صالح للجلوس.

ظلت جاحظة وهي تحدق في فوضى ذلك الكوخ الشبيه بمرسى بعد ذهاب الصيادين. خلعت جلاّبتها وشمرت عن ساعديها وأخذت تطوي الثياب وترتب الأشياء وتكنس وتنظف الحيّز الذي سينامان فيه، فرائحة الكوخ أصابتها بالغثيان وبرغبة شديدة في القيء. كانت في شهرها السادس وقد بدت لعبد المجيد ببطنها تلك، المنتفخة بالحمل، مثيرةً أكثر.

كان عبد المجيد عجوزاً تقريباً وقد ضعف نظره قليلاً، لكنه ظل قوياً رغم ذلك باعتبار أنه صياد يجدف بالفلوكة بساعديه كل يوم، ولا يتغذى في الغالب سوى بسمك طازج مشوي. أخذ يكرع الشراب من فم قنينة الفراكة دون كأس وقد فرش الطعام فوق منديل أمام سليمة وظلّ يعزم عليها كل مرة مقرباً الأكل بيده إلى فمها، طالباً منها بشكل مفاجئ بين فينة وأخرى أن تأخذ راحتها كاملة في الكوخ وأن تحسبه كأنه كوخها وأن تخلع ثيابها إن أرادت ذلك دون حاجة إلى إذن أو إلى خجل.

كان كل حديثه عن فقده زوجته وأبناءه وعن أرض أجداده الشاسعة التي فرط فيها ببيعها في شبابه لفرنسي بثمن بخس. كان يصف بدقة عيون ذلك الفرنسي الزرقاء ونحافته ودقة أنفه وبراعته في صيد الأرانب بإصابتها من أول طلقة وشعره الأشقر مشبهاً لونه بحرير

ألياف الذرة الذهبية. كان صوته حزيناً وعميقاً وساهماً ومضطرباً وهو يحكي تلك القصص غير المسلية، يبدأ قصة ولا يكملها ليبدأ أخرى، كاحّاً كل لحظة ومتجشئاً بطريقة غير لائقة كلما أخذ جرعة كبيرة من الشراب.

بعد ساعة كانا متلاصقين فوق الْكَاتْرِي الخشبي الذي ينام فوقه عادة، وهما عاريان بالكامل، وقد صعد فوقها كما يصعد فوق فلوكته دون غزل مسبق ولا تقبيل ولا مداعبة ولا تغيير للوضع. يلهث صاعداً نازلاً بمؤخرته الضامرة على ضوء الشمعة، مولجاً فيها مجدافه، ممسكاً بكلتا يديه تفاحتي صدرها كأنهما بوريّتان كبيرتان وقد بدا ظله عملاقاً على جدار الكوخ، والكاتري يَصرّ متأرجحاً كالزورق، وهو يبحر أكثر، وهي تكتم أنّاتها عاضةً على طرف الغطاء حتى لا تُسمع خارج الكوخ.

بلغ الضفة أخيراً بعد لأْيٍ فنزل عن الفلوكة، منهك القوة، يلهث ويمسح عرقه في ساعده المشعّر وقد حاز ما حازه من لذة وسكر واسترخاء وراحة، مقطراً في فمه آخر ما فضل في قنينة الفراكة من روح الدوالي. أعطى لسليمة ظهره ونام على الفور كغريق قذفه النهر على الضفة.

ظلت سليمة في وضعيتها تلك، عاريةً بالكامل، مستلقيةً على ظهرها، موسعةً ما بين رجليها، متلمسةً بيدها بطنها المنتفخة، متأملةً سقف الكوخ، وقد بلغت هي الأخرى ما بلغته من لذة وانتشاء.

ظلت وقتاً على تلك الحال ساهمةً تفكر في حياتها وفي مصيرها وفي الطفل الذي في بطنها قبل أن تُطفئ الشمعة بنفخة لها إيقاع

تنهيدة من الأعماق، لتخلد أخيراً إلى نوم لذيذ غالبها.

استيقظتْ سليمة باكراً جداً، أحست بنشاط وحيوية فقدتهما من مدة. كان بّا عبد المجيد لا يزال غريقاً في نومه.

قامت واعتنت بالكوخ، كنسته وسَيَّقَتْه وطوت الثياب وغسلت المواعين ورتبت كل شيء في مكانه. تأملت عبد المجيد لحظات وهو نائم كميت وعضلاته تبدو مفتولة رغم بياض شعره وتجاعيد جبينه وبطنه وهزال ساقيه. كانت الشمس قد اعتلت كتف الحي الصفيحي العملاق صاعدة بتثاقل من أعماق النهر، أبدية ثابتة في السماء ومهيبة، غير عابئة بما حدث في العالم أو ما سيحدث.

أغلقت باب الكوخ بهدوء خلفها وعادت إلى غرفتها في كوخ القوادة.

أدمن بّا عبد المجيد ذلك، عادت إليه حيويته ونشاطه القديم وروح النكتة الذي كان معروفاً به في الحي وبين الصيادين. أصبح يتردد باستمرار على كوخ القوادة طالباً سليمة دون غيرها، في يده سلة مليئة بالبوري، أو ورقة نقدية من فئة عشرة دراهم كاملة مزنّخة بالحراشف وبرائحة السمك. أحياناً يأتيها في غرفتها، وأحياناً تصحبه إلى كوخه. حكى لها كل شيء عن حياته وحكت له ما لم تستطع حكيه حتى للقوادة. أصبح يطلب منها البقاء أكثر في الكوخ، كانت ترفض بحجة أنها لا تريد مشاكل في عملها، فإن طُردت لن يكون لديها مكان تذهب إليه. كان يستغرب بشدة كلامها ذاك، فيجيبها رافعاً حاجبيه الكثين إلى أعلى فاتحاً يديه في الهواء:

– كيف تقولين هذا الكلام أمامي يا سليمة؟ كيف تقولين إن لا

مكان لك تذهبين إليه؟ وهذا الكوخ، أليس مكاناً تستطيعين الذهاب إليه في وقت ضيقك وحزّتك؟ أنا غاضب منك يا سليمة إلى يوم الدين...

تردّ عليه باقتضاب:

– لا أقصد أن أغضبك، لكن عليك أن تفهمني، فأنا حامل ومقطوعة من شجرة، وترددي كل ساعة على الكوخ قد يجلب المشاكل لي ولك...

يجيبها وهي ترتدي جلاّبتها على عجل متأهبةً للخروج:

– سأخطبك... سأخطبك يا سليمة... سأخطبك، وأتزوجك وتدخلين هذا الكوخ نهاراً جهاراً أمام الجميع برجلك اليمين برأس مرفوعة ووجه أحمر. سأخطبك يا سليمة...

تتركه يكرر ذلك كل مرة وتنسحب عائدةً إلى غرفتها كل صباح باكر قبل استيقاظ الجميع.

ذات مساء حمل في يديه سلّتَي بوري ممتلئتين عن آخرهما وفي جيبه مبلغ من المال وخطبها من القوادة.

كانت القوادة قد أشفقت لحاله بعد ترمله وفقده لأولاده الذين كانوا سنداً له، كما أنها فكرت في فترة ولادة ونفاس سليمة التي اقتربت والتي لن تعمل فيها، ووجوب اعتنائها بها فترة من الوقت ليست باليسيرة، فوافقت على زواجه بها وذهابها لتعيش معه في كوخه. وعدها بأن يصلها نصيبها من السمك الطازج حتى باب كوخها إلى أبد الآبدين فزغردت ابتهاجاً وفرحاً بالعروسين وبالمال وبالسمك.

بعد أسابيع معدودة من الخطبة جمعت سليمة ثيابها في رزمة وانتقلت إلى كوخ بّا عبد المجيد حانيةً رأسها. أحضرت القوادة عدلاً وشاهدين وبعض الجيران المقربين لإعلان الزواج بالزغاريد والعشاء بالرّفِيسَة بالدجاج البلدي لأكثر من عشرين شخصاً. كان بّا عبد المجيد قد اصطاد السمك طيلة تلك الأسابيع بدأب دون تقاعس ودون عطلة من أجل توفير ثمن ذلك الدجاج للعرس.

تعشى أولئك الضيوف دون أن يتركوا شيئاً في الصحون، وقرأ العدول بعض القرآن بصوت مرتل مرتفع مسموع لأبعد كوخ، وحنّت النسوة لسليمة يديها ورجليها وغنين ورقصن وزغردن.

قبل الفجر كان الجميع قد انصرف إلى حال سبيله، وصرار الليل يصر في مكان مجهول يصعب تحديده، وسليمة وعبد المجيد قد ناما.

بعد شهرين من زواجها أنجبت عبد الرحمن.

لم يبلغ عبد الرحمن عاماً كاملاً حتى حبلت سليمة من بّا عبد المجيد بتوأم، بنتين، ماتت واحدة أثناء الولادة وظلت الأخرى حية ترزق إلى أن كبرت وهربت ذات يوم إلى حي آخر وهي حبلى من مجهول.

بعد عامين من ولادة عبد الرحمن مات بّا عبد المجيد بسبب كحة غامضة أصابته من حيث لا يدري لم ينفع معها دواء ولا قرآن ولا بخور.

ورثت سليمة الكوخ والفلوكة عن زوجها وفي حضنها طفلان ما زالا يرضعان. لم تجد مالاً تطعمهما به بعد أن صرفت ثمن الفلوكة

في شهر فعادت تطرق من جديد باب القوادة.

لم يكن لدى أهل الحي أشياء هامة يفعلونها طيلة الأماسي، فكانوا يحكون هذه الحكايات، بتفاصيلها الصغيرة، إلى درجة أنهم يخترعون أجزاء كاملة منها، وكل واحد يخترع جزءاً آخر أو تفصيلة دقيقة من دماغه ويضيفها إلى الحكاية أثناء حكيها. في الغالب يكون جزء كبير من الحكاية صحيحاً، والجزء الباقي يكون مجرد تأليف وتلفيق وليد المزاج والخيال أو موافقاً لمصلحة الذي يحكي، ودائماً لسبب مجهول تُحكى الحكاية في غياب المعنيّ بها.

سمعت هذه الحكاية عن حياة بّا عبد المجيد وتفاصيل زواجه بسليمة وولادة عبد الرحمن من جارة عجوز حكتها لأمي، قالت إن سليمة حكتها لها بنفسها، وسمعتُ أمي تحكيها لجارة أخرى مضيفة إليها تفاصيل جديدة من دماغها وقد قالت هي أيضاً إنها سمعتها مباشرة من سليمة، وسمعتها من سكير ابن صياد، أقل تهذيباً وقد أكثر فيها من الحديث عن سكر بّا عبد المجيد بالماحيا حتى سقوطه أرضاً وعن فحولته الأسطورية لأنه كان يعاشر جنية النهر، وكثرة مغامراته في أكواخ المتعة مع نساء كثيرات قبل زواجه بسليمة وبعده. وبعضهم ختم الحكاية بغرقه بفلوكته في النهر، والبعض الآخر ختمها بقتل سليمة له بسم الجرذان، وآخرون قالوا إن عبد المجيد اختفى دون سابق إنذار، ولم يعرف أحد قطّ إلى اليوم أين ذهب، هل غرق في النهر ولم يلفظه الماء إلى الساحل، أم غادر الحي دون رزمة ثياب أو مال إلى حي آخر أو مدينة أخرى، تاركاً الجمل بما حمل، هارباً من بيت الزوجية وأعبائه كعادة كثير من رجال الحي الذين تركوا

زوجاتهم وأبناءهم في تلك الأيام، وطَجُّوا بعيداً إلى غير رجعة.

طيلة سنوات لعبنا في ملعب الوادي بكرة مَفْشُوشَة أو بجورب مليء بالشَّرَاوِيط والأوراق، وعُمنا في النهر من ضفة إلى ضفة عراة بالكامل، متسابقين جيئةً وذهاباً، راكضين في الطمي والأوحال كسلطعونات، وتعاركنا داخل الماء محاولين إغراق بعضنا البعض. طيلة تلك السنوات ظلّ الصبية يسبّون عبد الرحمن بسباب يعتمد هذه الحكاية مرجعاً له. بعضهم يسميه ابن الفراكة، يقصد بذلك أنه ابن بّا عبد المجيد الصياد العجوز المخبول الذي كان ملقباً بالفراكة. بعضهم يسميه ابن القوادة، معتقداً حسب حكاية أخرى أنه ابن القوادة رحمة وليس ابن سليمة القحبة، وبعضهم يسبّه بتسميته بابن الطّاجّ، أو بابن الهاربة معتمداً في ذلك التسمية الشائعة التي كانت تسمى بها كل الحوامل الوافدات هاربات إلى الحي من عائلاتهن في مدن وقرى وأحياء أخرى.

لم يكن عبد الرحمان هو الوحيد الذي سمّي بكل هذه التسميات، وشتم مراراً بكل هذه الشتائم، بل كان لكل واحد منا نصيبه من التسميات والشتائم البذيئة التي تنسب إليه عبر حكايات كثيرة متضاربة عن أصله وفصله وعن تاريخ عائلته، هذا أصلاً إن كانت له عائلة.

بالإضافة إلى أرض ميساوة التي كانت على يمين الشانطي، يساراً، وعلى امتداد الطريق كاملة حتى عكراش، هناك النهر، وبعض مصانع النسيج الكبيرة المنعزلة كالثكنات عن المنازل السكنية. بينما خلف النهر تبدو وَلْجَةُ سلا ممتدةً إلى ما لا نهاية، منبسطةً بدقة هندسية

شبيهة بدقة انبساط مدرج للطيران، شاسعة في كلّ الاتجاهات، تنقّط مربعات حقولها ومستطيلاتها أبقارٌ وخيول.

الولجة أيضاً كانت تصلح مهرباً جيداً من الشرطة بعد التورط الأكيد، في جريمة، كما أنها مهرب آمن من تصفية الحسابات بين أفراد عصابة وأفراد عصابة أخرى. فقد ظلّ سليمان أخو رشيد مختبئاً في الولجة طيلة خمس سنوات، بعد أن قتل والده. كانت تلك جريمة نكراء في العادة، لكنها لم تكن كذلك هذه المرة بالنسبة لأفراد الحيّ، على الأقل الذين عرفوا حقيقة العربي لاحقاً. لقد كان الْعَرْبِي، والد رشيد، رجلاً شديد السوء، نكل بعائلته كما نكل بنفسه وبكل أقاربه، وبمن صاحبوه أو عملوا معه أو تاجروا معه أو حتى من مرّوا من قربه فرأتهم عينه الوحيدة العوراء ورأوها.

عُرف العربي بالْفَرْنَاطْشي دائماً، فقد كان فرناطشي فران الحي الوحيد في سنوات غابرة، عندما كان عمره لا يتجاوز الرابعة عشرة ربما، حين جاء إلى الحي من مكان لا أحد يعلمه حينها. زامن ذلك بناء عائلة صَحْرَاوَةْ الكبيرة لأول فران صفيحي في الحي، فكان من نصيب العربي أن يكون فرناطشيه الأول. مهمته هي تقطيع جذوع الأشجار بشاقور حادّ إلى قطع صغيرة، وقذف تلك القطع بانتظام في بيت النار حتى تلتهب حمراء جائعة أكثر تتراقص كنار جهنم.

عمله هذا في سنه وهيئته تلك لم يكن مقابل مال، بل كان فقط مقابل طعامه ونومه في حفرة الحطب المقابلة لبوابة بيت النار، وكان هذا بالنسبة له ترف ما بعده ترف.

النسوة أو الأطفال الذين يحضرون وصلات الخبز والحلوى للفران

لم يكن بمستطاعهم مشاهدة العربي في الغالب، ولا الاقتراب من مكمنه قطّ، فقد كان بيت النار خلف الفران، معاكساً لبابه القصديري الكبير، وكانت تلك المساحة الشاسعة التي تعقب مدخل الحفرة التي تقابل بيت النار شاسعة كفاية ومسيجة بسياج سميك من القصب، ثم لاحقاً بعد سنوات قليلة بسياج منيع جداً من الصبار.

إضافة إلى السياج كانت هناك هضبة الجذوع والأغصان العملاقة حاجبة باستمرار الفرّان بكامله من تلك الناحية، ثم وهذا أكثر من كل شيء، الكلبة لاَيْكَةْ، التي عضت الجميع تقريباً مرة واحدة على الأقل.

إنها كلبة لا تطمئنّ سوى إلى العربي، ولا تسكن سوى إلى صفيره ومداعباته. كلبة لا تخطئها العين أبداً، خلاف كلاب الحي الأخرى الضالة الكثيرة الهزيلة التي ترى في كل مكان ووقت ولا شيء يميزها.

أما لايكة فلم تكن ضالة، بل كانت كلبة العربي، كما أنها كانت سوداء بالكامل لا يشوبها بياض ولا صفرة ولا حمرة، محاطة دائماً بعدد من الجراء الجديدة السوداء. أثداؤها متدلية دائماً بكثافة تكاد تلامس الأرض، وحين تتبعك يعني ذلك مباشرة أنك ستعود إلى البيت تنزف بعضة كبيرة لا يمكنك فعل شيء حيالها.

قالوا إن تلك الكلبة لا تموت ولا تكبر ولا تصغر، بل كثيرون زعموا أنها ما زالت حية حتى اليوم، وذلك صحيح، فالفران حتى نهايته ظل محروساً بكلبة سوداء اسمها لايكة لها نفس هذه الصفات، وبعد فناء الفرّان ظل الناس يرونها تطوف أرجاء الحي وأزقته.

يمكن للكلب الأسود أن يكون جنيّا شيطاناً وخصوصاً أثناء الليل، وهذا أمر مؤكد بالتجربة، فحتى الدين يحثّ على قتله كما كانوا

يقولون مؤكدين أن الإمام السّي العيّاشي قال ذلك أكثر من مرة أثناء خطبة الجمعة قاصداً لايكة. لكن، في نهاية الأمر، من سيستطيع حقا قتل جنيّ؟ من سيجرؤ على مواجهة روح سوداء شيطانية ساكنة في أعماق كلبة سوداء سوى بعض السكارى والحشاشين الليليين أو بعض الحمقى؟

كانت الكلبة لايكة تتزاوج دون توقف مع كلاب الحي الضالة، ويبدو أنها كانت تختار دائماً كلباً أسود، أو أن جيناتها هي التي كانت تغلب دائماً حتى وإن كان الكلب أبيض بالكامل كالحليب، تفرخ باستمرار جيلاً جديداً من الكلاب الصغيرة السوداء الوارثة لصفات ومزاجِ وشكلِ وصوت نباحِ لايكة المميز نفسه، فكانت بذلك ماكينة صناعة الجن والشياطين والطالع السيئ في الحي.

تموت لايكة بمرض أو تقتل فتعوّضها لايكة أخرى لحراسة بيت نار الفران. تكبر بسرعة ليستقرّ حجمها أخيراً على حجم لايكة الكلبة الأم، فتصير بذلك البنت هي الأم، لتفرخ من جديد جيلاً آخر لا نهائياً من الجن والكلاب السوداء القاتمة المسيخة ذات العيون الجمرية المتوهجة في الريح في دكنة ظلام الليل بين الأزقة الصفيحية الضيقة، على هضبة الدوم الموحشة، بين مصانع النسيج، قرب السكة القديمة التي لا يمرّ فوقها أيّ قطار، تحت قنطرة الرُّوبَانْسَا، في السّانية، في الولجة، على أطراف حقول ميساوة، داخل الخرابة الكبيرة، خلف المزابل، على ضفة النهر، وداخل مقبرة الصّدّيق.

تتشرد كلّ الجراء بينما تظل هناك دائماً لايكة جديدة لصيقة بقصدير الفران إلى درجة أن الذين رأوها منذ الأزل ما زالوا يرونها

إلى الأبد هي نفسها كما رأوها أول مرة، كلبة لا تقهر ولا تموت لها روح العربي الذي رباها أولاً وربما أحضرها معه حين جاء إلى الحي أول مرة، وقد مات العربي، ومات الفران، لكن شبح لايكة ما زال حياً يرزق وينبح ويعض.

كان سياج الفران مؤمّناً بالكامل لا يقربه صغير ولا كبير، وكان العربي الأعور يتحرك هناك وحده حافياً ناقلاً الجذوع من مكان لآخر طيلة الوقت دون استراحة، دون أن يكون لذلك لزوم، كمن ينفذ عقوبة سماوية لا نهائية.

لم يكن يبدو طفلاً حقاً في سنه تلك التي من المفترض أنها تكون عادة للأطفال في نهاية طفولتهم، بل كان ضخماً جداً مقارنة بطفل أو حتى بيافع، ويبدو على ملامحه، إن اقتربت منها كثيراً، أنها لرجل أربعيني، وقد أكّد بعضهم ذلك بقولهم إنه لم يكن طفلاً بل كان فقط يبدو كذلك من بعيد لأنه كان أمرد ولوجهه تلك الهيئة الصبيانية التي تصير هيئة شيطانية حين تكون لرجل مسنّ.

جاء العربي إلى الحي بعور عينه ذاك، وماضيه الغامض، وانطوائه الكامل على نفسه، وعدم اقترابه من الناس، وعدم تشجيعه لهم للاقتراب منه.

هل كان غلاماً يافعاً قوي البنية كما كان يبدو من بعيد، أم كان أربعينياً شيطانيّ السن كلايكة لا يزيد عمره ولا ينقص؟ لا أحد يدري على وجه التحديد، فحتى حين رأيته آخر مرة كان عمري سبع سنوات، وقد رأيته في هيئته الصبيانية تلك نفسها التي وصفوه بها، سوى أن نظرته كانت تقريباً مستقلة عن وجهه، فقد كانت نظرة شرٍّ

مُسنّة لا تغمض، غائرة ومُخَوَّضَةَ البياض بِرَشَّةٍ حمراء خفيفة كعيون القتلة الذين يفوقون قتلة الواقع والذين يمكنك أن تراهم فقط في كابوس.

كانت نظرةً ثابتة في الشرّ وفي الزمن لا سنَّ لها كملامح وجهه، وبالخصوص لا سنَّ أرضياً لها، فإن أمكن قياس عدد سنواتها فسيكون ذلك فقط وفقاً لسنوات جهنم.

وجهه الغلاميّ الزئبقي الأمرد، ونظرته الصغيرة الثاقبة التي لا تغمض ولا ترمش، وفمه المطبق دائماً على الصمت والكتمان، وطاقيته الرخوة المهترئة فوق رأسه التي لا تتغير، هذا هو كل ما أتذكره الآن مما انطبع في ذهني عنه منذ آخر مرة رأيته فيها وكانت كأنها هي نفسها المرة الأولى التي رأيته فيها، فلا شيء فيه تبدل أو تغير سوى عدد الحكايا والأساطير التي ما زالت تروى عنه.

كان العرْبي يملك تقريباً كل تلك المساحة المسيجة بالقصب والصبّار المحايثة للفران.

كان بَّا مُوحَا الصّحراوي صاحب الفران قد شاخ أكثر مما يمكن تصوره مقارنة بقوته وهمته التي لزمته حتى وفاته، وكان عدد أولاده وبناته كثيراً جداً، إلى درجة أنهم شكلوا بمفردهم عصابة كاملة مخيفة ومهابة الجانب، عرفت بعصابة صحراوة. برعوا في تهريب الكيف من أماكن بعيدة وجبال وعرة في الريف عبر بغال مدرّبة وإدخاله في أكياس كبيرة إلى الحي كالطحين، ومن ثمة بيعه بالجملة لباعة آخرين يبيعونه بالتقسيط، فأصبح الجميع بعد فترة قصيرة يبيع الكيف والجميع يدخنه.

كان الفرانُ بالإضافة إلى أنه فرانٌ كما يبدو، مخزنًا أيضاً لأكياس الكيف الكثيرة.

لكن عصابة صحراوة هذه لم تكن كباقي العصابات التي جاءت بعدها، فقد كانت عصابة محترمة لدى الجميع، نساء ورجالاً، لا تقرب أحداً بالباطل، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، فقد كان با موحا كما وصفوه دائماً رجلاً مَعْقُولاً صالحاً متديناً لا يخلع الجلباب الأبيض ولا تترك يده سبحة التسبيح، وظلت أسنانه وأضراسه بيضاء ناصعة متكاملة حتى بلغ سنًّا لا يكون في مثلها أسنان لصاحبها.

كان يأمر أولاده بالقسط والعدل وعدم الغش في بيع الكيف، كما أنه ظل محافظاً على الصدقة والزكاة من أرباح تلك التجارة فلا يضام عنده مظلوم ولا يرجع من بيته محتاج دون أن ينال طعامه وكساءه وكيفه.

كان أبناؤه مطيعن له لا يرفعون رؤوسهم أثناء مخاطبته، وكان هو من بدأ هذه التجارة أولاً في شبابه في حي آخر في مدينة أخرى تقع في الجنوب. لكنه حين كبر وصارت سنه ومكانته لا تسمحان له بأن يتاجر مباشرة في الكيف، رغم أن بعض فقهاء الحي الذين شملهم كرمه وعطاياه لم يحرّموا بيع الكيف ولا تدخينه، أقسم أن لا تمسّه يده أبداً، فتكفل أولاده الكثيرون من نسائه غير المعدودات بذلك. كان يمدهم فقط بالنصائح وبخرائط الطرق الملتوية بين الجبال وطرق تدريب البغال على سلك مسالك وطرق وعرة طويلة بمفردها وبأسرار نبتة الكيف السحرية وطرق التخفي والتملص من حراسة خفر الجبال والغابات والسواحل وأساليب تمويه الشرطة

وشرائهم بشراء السوق كاملة وإرساء الأمن والعدل في منطقة البيع، فلا شأن للشرطة بما يحدث بعيداً عنها ما دام الجميع ما زالوا أحياء لم يَقتل أحدهم الآخر وما دامت التجارة مزدهرة يربح منها الجميع ولا تتم سوى في الظلام.

ظلّ با موحا حتى آخر يوم في حياته مواظباً على الصلاة في المسجد في مواقيتها بشهادة الجميع التي دلّ عليها حجم جنازته، بجلبابه الأبيض الناصع الذي يلائم كثيراً لون وجهه الأسود القاتم اللامع في الشمس، وخنجره ذي الغمد الفضي المُعشّق بالنقوش القديمة للزينة والوجاهة، على عادة شيوخ أهل الجنوب، المتدلي عند جانب بطنه عبر خيط مشغول ومزركش نازل عبر كتفه، وعينيه البنيتين ونظرته التي لا تشوبها شائبة غدر ولا خيانة ولا قلة مروءة، ورُزَّتِه البيضاء الناصعة، ولحيته الصغيرة الشبيهة بنبتة حلفاء صغيرة ذاوية ملولبة كأسلاك، عند ذقنه فقط، كصياد صيني، وعكازته ذات القبضة المعقوفة التي قيل إنها عكازة حكمة أجداد أجداده وإنهم حافظوا عليها أباً عن جد. يقضي صلاته في وقتها، يعاشر نساءه الكثيرات الصغيرات منهنّ والعجائز كما يفعل ذلك شاب حديث العهد بالزواج، بقوة باهٍ خيالية، يستحم بماء البئر البارد دون أن يصيبه رشح أو روماتيزم أو آلام ظهر أو مفاصل، يجلس أمام باب الفران بنخوة يستخلص المال بنفسه من الزبائن ويعيد إليهم الصرف دون خطأ، ممازحاً النسوة والأطفال بنكات ودغدغات وصرخات وقهقهات محببة أحياناً من تلك التي يتميز بها صحراوة دون غيرهم، غير فاقد بذلك شيئاً من هيبته، قبل أن يترك أمر الفران لأحد أبنائه

الصبية أو أحفاده ويقصد مجلس شيوخ الحي قرب الكَاليتُوسَة العملاقة الشريفة التي، كما قالوا، نزّ منها ذات يوم دم قان وغزير كدم الإنسان.

بعد صلاة العصر يصعد تلة جبل الرَّايْسي وحيداً، ممسكاً عكازته خلف ظهره كراع إذ لا يستعملها في العادة إلا هكذا فهو لا يحتاج إلى عكازة يتوكأ عليها رغم شيخوخته، بل ما زال يرى الحدأة في السماء، ويطحن الحمّص المحمّص بفكيه، ويرقص الأَحِيدُوسْ كراقص بارع أثناء عرس أحد أبنائه أو بناته أو ختان أحد أبنائه أو أحفاده. يصل إلى أعلى التلّة بسرعة كتَيس دون انزلاق أو استراحة أو لهاث أو تعثر، يجلس هناك وسط الدُّومِ والحشائش، قبالة الفران بكامله، ومساحة كوخه الكبير وأكواخ أبنائه وبناته المتزوجين المتلاصقة التي تشغل لوحدها حيزاً كبيراً من الحي كأنها حيّ مستقل بنفسه داخل حيّ آخر، قبالته. ومن هناك أيضاً يرى العربي يتحرك جيئة وذهاباً بغموض منقِّلاً كومة الأغصان الكبيرة على ظهره من مكان إلى مكان. ويرى الكلبة لايكة بقعة سوداء متحركة تتبعه كظله. وعلى يمينه من ذلك العلو يرى النهر صفحة زرقاء جامدة كأنه لا يتحرك متقدماً بجمود في اتجاه المحيط الأطلسي أو صاعداً منه في اتجاه عكراش، خلفه الولجة بمربعات ومستطيلات حقولها اللانهائية الخضراء، أو البنية والسوداء حديثة الحرث التي تتراءى له من ذلك البعد والعلو كمربعات شكلاطة النصارى.

يظل هناك بجلبابه الأبيض ورزته البيضاء وبَلْغَته الصفراء وخنجره، كطائر البقر، جالساً القرفصاء وحده يحدث نفسه بصوت مرتفع،

مشيراً بعكازته كل مرة في اتجاه، أو هَازِجًا أحيانا بصوت يسمع من بعيد أهازيج صحراوية أمازيغية قديمة لم يعد بمستطاع أحد اليوم تذكر أبياتها الموغلة في القدم والشجن ولا نظم مثلها.

يظل هناك ما طاب له أن يظل، غير محتاج إلى أيّ أنيس أو ونيس، غير عابئ بحرارة الشمس فوق بشرته الفحمية الداكنة المزيتة بالسنين والقسوة والأخاديد والأسرار والحكايا وحنو الأجداد القدامى. لا ينزل من هناك في الغالب إلا حين يُمسّي المساء ويعتلي المؤذن الأعمى بًّا رَحُّو سقف الجامع القصديري الصغير، واقفاً عند أعلى درجات السلم الخشبي مستنداً بيده الأخرى على ركيزة علم الجامع محاذراً أن يقع، عاقفاً يده الأخرى كبوق عند فمه، رافعاً عينيه المطفَأتين إلى السماء وعقيرته الجنائزية بالأذان.

تظل الحركة دؤوبة عند الفران طيلة النهار، قربه وداخله وعند بابه. نساء كثيرات يتراءين من بعيد كأسراب نمل، وأطفالٌ على رؤوسهم وصلات الخبز إما من الكوخ إلى الفران وهو عجين، أو من الفران إلى الكوخ وقد استوى خبزاً مقرمشاً ساخناً، أو حلوى بيتيّة بالطحين والسميد والزبدة والسكر أيام الأعياد والسُّفُوف قبل رمضان تُشم رائحتها من بعيد.

بينما يتحول الفران نفسه في الليل، حيث مدخل سريّ عبر بئر ناضبة يؤدي إلى غارٍ أفقي تحت الأرض منته بخزين واسع للكيف، يتحول إلى وكر لتجارة المخدرات بالجملة إلى كل باعة الحي وباعة أحياء كثيرة أخرى، ويتحول مدخل الفران غير المضاء بأيِّ ضوء إلى بابٍ شبيه بباب ثكنة عسكرية مموهة بالأغصان والظلام محروسة

بعشرات الجنود الأشداء الملثمين المسلحين الذين ليس لديهم ما يخسرونه.

بالنسبة للعربي الفرناطشي كل ذلك لم يكن يعني له شيئاً، كما أن كل شيء لم يكن يعني له العربي أيّ شيء. لقد كان العالم يتحرك من حوله بإيقاعه الرتيب، البطيء في الغالب، السريع بشكل مفاجئ أحياناً في أوقات محسوبة ومعروفة مسبقاً. عالم ثابت رغم أنه متحول باستمرار، كبير ومتشعب لكنه مترابط بشدة حتى حين يبدو للعابر مجرد فوضى.

كل تفصيلة مهما كانت صغيرة إلا ويكون لها مكانها في ذلك النسيج، كَبُرْغِيٍّ صغير في ماكينة عملاقة. وبعدد تلك التفصيلات اللانهائية والشخوص اللانهائيين والأحداث اليومية المتتالية والمكان نفسه المحدد بعلامات بعينها والعلاقات المتشابكة وزغاريد النساء عند أي ولادة جديدة وعويلهن عقب أي موت، كل ذلك كان بناء واحداً صلداً متماسكاً جارياً مع الزمن بانسجام كساقية ماء مستمرة التدفق بوتيرة معقولة ثابتة لا تنفصل فيها أي قطرة ماء صغيرة جداً عن الأخرى حتى يصير ذلك الماء حبلاً واحداً متيناً مفتولاً طويلاً جداً يصل حتى النهر، ومن النهر حتى البحر، لا يهم فيه الماء الذي يبدأ عند النبع وينتهي سريعاً عند المصب أو يتبخر في الطريق بقدر ما يهم فيه جريان الحياة الثابت، الجارف، المستمر، والأبدي.

العربي كان هو قطرة الماء التي لا تنتمي إلى أي ساقية، ولا تخضع لقانون أي جريان، ولا تدخل في نسيج أي مجتمع.

لقد كان ساقية سرية لوحده، يفكر بطريقة مختلفة عن الجميع،

وقلبه الذي كان يخفق بين ضلوعه ضاخاً الدم إلى عروقه لم يكن كأيّ قلب آخر من قلوب البشر المتشابهة. لقد ولد ليكون هكذا، أو لعلّ القدر المقدس نفسه هو من صنعه هكذا لسبب غامض، بل حقاً يمكن القول إن حتى القدر نفسه يتبرأ منه مثلما تبرأت الآلهة جميعها من الشيطان، ليصير الشيطان بذلك مسؤولاً وحده عن أفعاله، مستقلاً عن الآلهة بذلك، محدداً مصير نفسه ومصير من حوله بمشيئة نفسه.

لم يكن العربي برغياً في ماكينة المجتمع الكبيرة شأنه شأن باقي البراغي وقطع الغيار، بل كان العطل المكين لتلك الماكينة التي لا يمكن أبداً إصلاحه.

الشيء الوحيد الذي كان يربط العربي الأعور بنسيج الحي المتناغم هو رميه لقطع الحطب داخل بيت النار، لكنه رابط ظاهري فقط، ومن جهة واحدة لا غير، هي جهة الفران بأصحابه وزبائنه وساكنة الحي جميعهم ابتداءً من أيّ طفل تظهر له الكلبة لايكة في كوابيسه حتى أبعد شيخ مقعد من شيوخ الحي يلوك في فمه الخالي من الأسنان ببطء وسرحان دُغْمَةَ الخبز الساخنة.

أما من جهة العربي فلم يكن هناك أيّ رابط يربطه بالفران ولا بأصحاب الفران ولا بأهل الحي ولا بأيّ أحد في العالم، بقدر ما كان مرتبطاً فقط بالنار، بتوهجها المستمر طيلة النهار أمام عينه الوحيدة المبتهجة بذلك المنظر الجحيمي لتراقص اللهب بين حافة الوجود والعدم، بألوانها المتغيرة حسب شدّتها، بفحيحها واستعارها وقدرتها العجيبة على تحويل أي شيء أمامها وكل شيء، دون هدف واضح أو غير واضح، إلى رماد.

مر السحاب بحياد فوق الفران وفوق الحي سنوات طويلة أشعل فيها العربي نيراناً كافية لإحراق العالم، سنوات طويلة من الظلام والموت والرعب غير مرئي لأحد سوى لذلك السحاب الصامت.

لقد كان العربي عنكبوتاً وكان سياج الصبار حدود شباكه الرهيبة التي لا يرجع منها أبداً من وقع فيها، والتي لا تثير أيّ شكوك خارجها، ولا تترك أيّ آثار داخلها. فقد كان بالنسبة لسكان الحي مجرد مسكين ذهب لهب النار بعقله بعد أن أذاب مخه داخل رأسه، مجنوناً بَهْلُولاً مقطوعاً من شجرة يعطفون عليه أحياناً بطعام وأحياناً بكساء.

كان فعلاً كذلك، لكنه كان أيضاً، في حقيقة الأمر، شخصاً آخر مجهولاً بالكامل، ساهم مظهره الرث غير المبالي ذاك، ومشيته الجنونية تلك، وصمته، وعزلته، في بقائه مجهولاً وسرياً كخفاش، مصاص دماء مجهول الهوية والبصمات، قاتلاً متسلسلاً رهيباً، أعدم عدداً غير قابل للعد من سكان الحي أطفالاً ونساءً ورجالاً وشيوخاً، نفذ فيهم أحكاماً عبثية صارمة غير قابلة للنقض ولا للمداولة، أصدرتها ضدهم محكمة عقله الرهيبة.

لم يكن العربي مكلفاً قطّ باحتطاب الأشجار وجلبها إلى الفران، بل كان الحطب يصل حتى سياج الصبار عبر شاحنة كبيرة من نوع بيرْلِي، يفرغ السائق الشحنة برفعها آلياً إلى أعلى لتنزلق دفعة واحدة دون أن ينادي العربي أو يهتم لأمره، يعيد مؤخرة الشاحنة إلى وضعها الأول، يستغرق كل ذلك من الوقت زمن تدخينه سيجارة، يقذف عقبها من نافذة الشاحنة متفادياً أن يقع ذلك العقب بين كومة

الأغصان، يدير المقود ويذهب.

يخرج العربي كعقرب من جحره بعد اختفاء الشاحنة بهديرها وسحاب غبارها. يسحب الأشجار بصمت واحدة بعد واحدة كجثث، والجذوع والأغصان إلى داخل السياج، ليبدأ مباشرة بتقطيعها.

لكنه بين يوم وآخر كان يحمل شاقوره على كتفه ويخرج حانياً رأسه ساحباً خلفه خيشة كبيرة، والكلبة لايكة تتبعه متشممة طريقها. يقصد ضفة النهر أو يصعد تلة دوم جبل الرايسي، أو الولجة عبر قنطرة الروبانسا. يحتطب شجرة يجرها خلفه من هناك حتى الفران، وعلى كتفه الكيس مليء بالحطب ولايكة تسبقه راقصة له بذيلها.

لم يكن أحد من أصحاب الفران يطلب منه ذلك، وأيضاً لم يكن أحد منهم يهتم لأمره، بل أكثر من ذلك بدا لِبًّا موحا عملاً يستحق عليه العربي التشجيع والتنويه عوض النهر أو الجزر. كما أن أمراً كهذا بدا دائماً لسكان الحي طبيعياً ومألوفاً أن يحتطب فرناطشي نزيه في عمله مزيداً من الأشجار المجانية في أوقات فراغه. أو أنه لم يبد طبيعياً وبديهياً في الحقيقة إلا بعد مداومة العربي عليه دون أن يثير ذلك أية مشاكل.

لكن الأمر لم يكن يحدث هكذا كما كان مرئياً للجميع، بل حدث فقط كما كان مرئياً بوضوح للعربي وللكلبة لايكة وللسحاب.

لم يكن حطاب أشجار، بل كان في حقيقة الأمر حطاب أرواح شاردة، يتخيّر ضحيته بعناية شديدة في تلك القفار الوعرة الفارغة: سكير ينتبذ موضعاً قصياً لنفسه معاقراً قنينته وهمومه. شيخ يجلس

قبالة النهر منقطعاً عن ضجيج الحي وعيونه يجتر ذكرياته قبالة الزوارق وأسراب طيور البقر. امرأة عجوز ترعى بقرة أو شاة. طفل شارد، أو جماعة من الأطفال، أو عابر سبيل، أو فتاة عائدة من مصانع النسيج عبر طريق مختصرة. ينتبه إلى وجودهم دائماً دون أن ينتبهوا إلى وجوده. يلتفت يميناً ويساراً، يشمّ الهواء كضبع، يؤمّن المنطقة ببطء بعينه الوحيدة، يبدأ بالتقدم في اتجاه الطريدة دون صوت خطوات أو نفس، والكلبة لايكة تتبعه متخفية بالحشائش صامتة رافعة آذانها عاقفة ذيلها بين قائمتيها الخلفيتين.

يأتي دائماً من الخلف، أو يكمن داخل مسرب، أو يخرج من حفرة أو من الماء، أو يقفز من فوق شجرة أو صخرة أو تلة، في اتجاه ضحاياه، رافعاً الشاقور إلى أقصى حدّ، ضارباً ضربته الوحيدة الشبيهة بلسعة عقرب عملاقة، ضربة الهلاك الأكيد العبثية التي لا منقذ منها ولا مفرّ ولا نجاة.

لا تنبح الكلبة لايكة أبداً أثناء هجوم، بل تقفز مباشرة عند تسديد العربي ضربته الكتيمة، تقفز بدقة في اتجاه العنق، تعض عضة واحدة وتنتظر ضاغطة بكل ثقلها على صدر الفريسة المسجاة أرضاً والتي لا يمكن أن يكون قد رآها أحد وهي تسقط هكذا كشجرة قصمها البرق.

لقد أصبح للعربي مع الوقت حواس وحدس الوحوش والضواري التي لا ترتكب أيّ خطأ أثناء الصيد، فمهما كانت السمّانة حذرة تقع بين أظافر الثعلب، ومهما كانت الأرنب سريعة تنتهي بين أنياب ابن آوى المطبقة، ومهما كان الغافل الشارد في قفر حريصاً على حياته

يسقط أخيراً صريعاً أمام حذاء العربي السميك المفكك الخيوط، دون مقاومة أو صراخ أو لفت انتباه.

ضربة واحدة فقط في الرأس، لا تتكرر أبداً، لا يوقفها شيء، ولا تراها عين. تلفظ الفريسة أنفاسها سريعاً، فاتحة عينيها قبالة السماء بجحوظ. تؤمّن الكلبة المكان بركض حثيث في كل الاتجاهات متشممة أي اقتراب مجهول قبل حدوثه وإن كان عن بعد أميال، بينما يحشو العربي الجثة داخل كيس الحطب الكبير دون أن يغمض عيونها قبل أن يموهها ببعض الأغصان والحشائش مبتسماً ابتسامة عاقلة، رزينة، ومقتضبة، لم يسبق لأحد أبداً أن رآها، وإن رآها فلن يكون بمستطاعه أبداً فهمها.

مع غلبة دكنة المساء على ضوء آخر النهار، حين تكون الشمس قد غطست بالكامل داخل المحيط، في تلك اللحظة بالذات التي لا يمكن فيها تمييز غروبٍ عن شروق، ولا فجرٍ عن مساء، ولا ضوءٍ عن ظلام، تمييزاً أكيداً، يظهر العربي كالزّومبي العائد من الموت، نازلاً الهضبة بتؤدة وحكمة واتزان وثبات عبر تلك السماء الدامية بالغروب، بظله الطويل العملاق، حاملاً خيشة الحطب على ظهره تتدلى من فمها الأغصان، جارّاً شجرة في يده، مخلفاً وراءه غيمة كبيرة من الغبار، حانياً رأسه في اتجاه أقدامه، لا يرفعه في وضعيته تلك طيلة طريقه، ولا يلتفت أبداً يميناً ولا شمالاً ولا إلى وراء. تسبقه الكلبة لايكة بخطوة أو تطوف حوله أو تركض أمامه أمتاراً مؤمّنة له الطريق.

يكون الحي مكتظاً بالمارة والأطفال في تلك الساعة من موت

النهار وولادة الليل ضاجاً بالصراخ والجلبة والقهقهات وزقزقات الدوريّ الأخيرة داخل أشجار الأكواخ.

لكن، لا أحد يلتفت للعربي أو يهتم لأمره، أما الأطفال فآخر شيء قد يفكرون فيه ذات يوم من أجل التسلية هو الاقتراب من الكلبة لايكة.

يفتح باب السياج بقدمه من وضعيته تلك وينحني ليدخل بالخيشة وهي على كتفه. يتقدم بها داخل مساحة السياج بخطوات ثابتة حتى حافة الحفرة المقابلة لباب بيت النار، يفرغها هناك كما تفرغ شاحنة البيرلي حمولة الحطب. يعود إلى باب السياج حانياً رأسه، يجرّ الشجرة مقلوبة من جذعها، تترك آثاراً على التراب كآثار الحرث، ويكون لجرها صوت مهدئ للأعصاب في نهاية تلك المساءات الهانئة الجميلة. بينما تقصد لايكة جراءها بشوق محركةً لها ذيلها فائضةً بأثدائها الكثيرة أمامها بحليب القفار، أو تنتبذ ركناً قصياً إن كانت حبلى بجراء جديدة تكمن فيه داخل كومة الحطب الكبيرة أو فوق أغصانها، دالقةً لسانها أمامها تلهث، أو تنزل إلى الحفرة لتتشمم الكيس.

يعود العربي باطمئنان إلى باب السياج ليسده ويسنده من الداخل ببرميل كبير، ثم ما يلبث أن يختفي تماماً عن أنظار السحاب وغيوم المساء داخل الحفرة رفقة لايكة، ويعم مساحة السياج هدوء كامل وسكينة لساعات.

حين يُليّل الليل، تبدو من السماء نار أغصان صغيرة في تلك الساحة، عليها إبريق شاي العربي يفوح برائحة النعناع الْعَبْديّ في

الأرجاء، ويسمع صوت صرار الليل المضاد للأرق، آتياً بانتظام من داخل أشواك الصبّار.

بعد أيام قليلة كان يشاع في الحيّ أن فلانة أو فلاناً اختفى بالكامل عن الوجود، غرق في النهر دون أن يراه أحد يغرق ولم تقذفه المياه على الساحل، أو أن الشرطة اعتقلته لأسباب لا تعرفها إلا الشرطة وحدها، أو أنه هجر الحي إلى الأبد إلى حي آخر أو مدينة أخرى طَاجًّا دون سابق إنذار.

رجال كثيرون ونساء وشباب في مقتبل العمر، وصبايا ضاجات بالحياة، وأطفال وعجزة من سكان الحي اختفوا فجأة بهذه الطريقة الغامضة، لم تظهر لهم ظاهرة بعدها أبدا، ولم تعرف لهم أخبار ولا شاهدة قبر.

لم يكن يهم الشرطة في شيء اختفاؤهم أو ظهورهم، بل على العكس من ذلك كان اختفاؤهم بشرى خير عظيمة للشرطة التي لم تكن ترى فيهم وفي سكان الحي قاطبة سوى البلاء والمشاكل ومزيد من الجرائم والدوريات والعمل الليلي الخطير المتواصل. كانت شكاوى الأهالي وتبليغاتهم المستمرة تقيّد ضد مجهولين والمحاضر والسجلات والإضبارات تغلق بسرعة وتتكدس فوق المكاتب وعلى رفوف خزانات المعدن الكبيرة المغبرّة.

تجاوز عدد الذين اختفوا حدًّا غير معقول، كما أن العدد اطّرد وتضاعف بشكل مهول في أحد الشهور بمنسوبِ أكثرَ من شخص مختف في اليوم. فأصبح من اللازم على كل فرد من أفراد الحيّ أن يتسلح ويحترس باستمرار، فالعدو كان مجهولاً خارقاً، ولم يعد كافياً

نسْب أمر الاختفاء فقط إلى الغرق أو إلى تخلي الرجال عن زوجاتهم وأطفالهم طَاجِّينَ إلى المجهول، فلم يكن من المنطق في شيء اختفاء عجزة في نهاية أعمارهم ليس مرجحاً أبداً أن يسبحوا ليغرقوا، ولا أن يهجروا الحي باحثين في أواخر حياتهم عن حياة جديدة.

بل نسجت أساطير كثيرة، وحكايا بلا عدد تفسّر ما حدث وما سيحدث، إذ كثرت الاجتماعات داخل باحة الجامع، وتحت ظل الكاليتوسة بعد صلاة كل عصر.

بعضهم عزا الأمر إلى الجن بقواها السحرية، بعضهم عزاه إلى لعنة الله بسبب الكيف والموبقات على أهل الحي، وبعضهم الآخر تحدث عن وحش خرافي يستوطن أغوار النهر، لا يقتات إلّا من دم الإنسان وروحه.

كثيرون قدموا شهادات دامغة عمّا رأوه من أمر الجن أو من أمر ذاك الوحش الذي له حجم فيل ورشاقة ضبع وجلد داكن أملس لا زغب فيه مبتل دائماً بماء النهر ودماء الضحايا وعيون كبيرة خضراء كالقيح تنوّمٍ من تحدق فيه أو يحدق فيها وتشلّ حركته بالكامل، ولسان متدلٍ من فمه المليء بالأسنان الحادة كالمناشير يصل حتى الأرض حين يغضب ويهيج.

كثيرون رأوا جنية بثياب المقابر البيضاء، في هيئة عروس تائهة عن ليلة زفافها، وكل من رآها يفتتن مباشرة بجمالها وبجمال شعرها الطويل الناعم المسدل الذي يلعب في الريح أمام وجهها تحت ضوء القمر والنجوم أو تحت الأضواء الكاشفة ويصل حتى خصرها، وحين ينزل بعينيه إلى أسفل يجد أن لها أرجل جمل. تعترض سبيل السالكين

لمكان بعيد عن الأنظار أو مهجور أو قرب المقبرة أو وسط الطريق تُوقف الشاحنات والسيارات والجرّارات وتنزل سائقيها أو تركب إلى جانبهم معتقدين أنها امرأة جميلة تقطّعت بها السبل أرسلها الله إليهم ليتزوجوها مجاناً، لكنها تخطف أرواحهم وأعمارهم في رمشة عين بمجرد ما يروا أقدامها. بعضهم نجا بأعجوبة من حبائلها ليحكي ما حصل هارباً بجلده ساقطاً كل مرة فوق أشواك القُوقِ والجَرْنِيجِ، متدحرجاً من أعلى هضبة حتى أسفلها قبل شدّه لهمّته ووقوفه من جديد لمواصلة الهرب بأنفاس مقطوعة غير ملتفت إلى الوراء كي لا يظل عنقه ملتفتاً إلى الأبد. كانت الأشواك التي تظلّ في ثيابه ولحمه والطمي والكدمات شهود عيان دامغة على صحة كلامه وعلى حقيقة ظهور الجنية في أماكن عديدة للجميع.

كما أن الصيادين أكدوا أكثر من مرة سكن الوحش في أعماق النهر، فقد اختفى ثلاثة صيادين ظلت قواربهم فقط شاخصةً كالقرينة الدامغة تتأرجح فوق الماء. ومراراً حكى صيادون آخرون عن دوّامات الماء الغامضة في الليل التي لم يسبق لهم أن رأوا مثلها قطّ في ذلك النهر الذي ولدوا على ضفته صيادين أباً عن جد، وحركات الماء المفاجئة والعملاقة التي لا يمكن حسب خبرتهم الطويلة في معاشرة النهر أن تكون بسبب أسراب البوري الصغير الذي يسبح عادة فوق سطح الماء في أسراب كبيرة ويقفز أحياناً في الهواء كما تفعل الحيتان في عرض المحيطات قبل أن يعود للاصطدام بسطح الماء والغوص عميقاً داخله من جديد، فلم تكن هناك في النهر من حيتان أو دلافين أو قروش أو أسماك يتجاوز طولها نصف المتر

حسب تصريحات الصيادين أنفسهم، بل كل ما كان هناك هو البوري الصغير، والنُّونُ الأفعواني الذي لا يصعد أبداً إلى السطح بل يفضل الطمي والمغاور وحطام الزوارق، والبَاغْبَاغْ البشع الذي يستوطن الصخور والذي له شكل وحجم فردة الحذاء، والسِّبِّيِّي الصغير جداً كثير الأشواك المخطط بالأصفر والأسود والملون في أصناف أخرى أصغرَ القادم من سدّ عكراش. أما تلك القفزة المدوية فوق الماء التي كانوا يسمعونها باستمرار كل ليلة قادمة كل مرة من المكان المباغت الذي خلفهم والذي لم يكونوا ينظرون إليه حينها فقد كانت قفزة تفوق الوصف وحركة زلزالية للماء إلى درجة أن تموجاتها العملاقة كانت تقلقل قواربهم وتحرك قلوبهم وشموعهم التي يضيئون بها زوارقهم وطريقهم في النهر المظلم الساكن الطويل، بل كانت تطفئها أحياناً. لقد كانت دون شك تلك القفزات المتواترة لوْحش عملاق يعلن عبرها سطوته واستيطانه للنهر وحيازته له.

ذات مرة كان صياد عجوز أعرج اسمه بَّا المهدي نائماً في زورقه، وقد بلغ منه التعب مبلغه، في انتظار أن تمتلئ شباكه ببعض البوري، ملتحفاً بمعطفه حدّ طاقيته، فاتحاً فمه الأدرد ذا الشفتين المزرقّتين بتدخين سجائر فَافُورِيتْ الرخيصة عديمة الْفِيلْتْرْ، إضافة إلى السبسي المصنوع من غصن شجرة زيتون والذي لا يفارق جيبه. كانت شمعته مثبتة على حافة القارب في تلك الأمسية الصيفية الرائقة دون نصف قربة تحميها من هيجان الريح، فلم تكن هناك ريح، بل مجرد نسائم نهرية باردة وخفيفة.

قفز الوحش فجأة قفزته الرهيبة تلك، خارجاً ثانيتين من الماء قبل

العودة إليه. أحدثت قفزته تموجات عظيمة رجّت القارب وحرّكته يميناً وشمالاً متأرجحاً كما اتفق. سقطت الشمعة وتدحرجت قليلاً وقبل أن تنطفئ، شبّت النار في شبكة ممزقة قديمة وفي بعض الثياب المكومة ثم في خشب الزورق، وأخذت تسري بسرعة حتى أنها شبّت في معطف بّا المهدي وسرواله وطاقيته وشعره من ناحية ظهره التي كانت مقابلة للنار. لم يستيقظ إلا بعد أن لفحت النار أعماق روحه، فقد كان تقريباً مخدراً وربما ثملاً أيضاً أو فاقداً للوعي بالكامل. فتح عينيه وفمه هلعاً وهو ينتفض ليقف والنار مشتعلة فيه كعرف الضّبّ من رأسه إلى حذائه. قفز في النهر وكان سباحاً ماهراً رغم سنه المتقدمة تلك وعرج قدمه، فالسباحة ليست مجاهدة وقوة عضلات بالنسبة له ولأغلب الصيادين، بل فن ومهارة تعتمد الهدوء والحكمة والانسياب أكثر، وقد كان بّا المهدي بارعاً في ذلك شأنه شأن باقي الصيادين. إلا أنه لم يصعد من أعماق الماء تلك المرة، بل غاص عميقاً كمرساة، واختفى إلى الأبد دون أن يلفظه النهر في ما بعد، أو يظهر حذاؤه أو طاقيته أو بعض ما قد يدلّ عليه.

ظلّ القارب مشتعلاً وسط الماء على صفحة النهر المظلمة الهادئة، رآه بعض الصيادين فجدفوا سريعاً في اتجاهه، كما اصطف البعض بسرعة على الساحل يراقبون مشهد النار متوهجةً وسط الماء وقتاً طويلاً قبل أن تأتي على الزورق كاملاً وتذوي. قال بعض الصيادين إنه زورق المهدي الأعرج، وقال آخرون في ما بعد بل إن الصيادين قالوا إنه زورق عبد المجيد الفرّاكة، بينما اتفق الجميع على أن الوحش القابع في أوحال النهر هو من كان وراء ذلك، وأنه لا يهاجم الزوارق

عادة ويقلبها، فقط لأنه يكون شبعان، إذ من عادته أن لا يأكل أبداً وأن لا يصطاد وأن لا يهاجم دون سبب إلا إذا كان جائعاً.

صيادون آخرون كانت حكاياتهم عن هذا الوحش أكثر وضوحاً، فقد رأوه في ليال قمراء وهو يرتفع عن الماء في قفزات عملاقة مسافة مترين على الأقل قبل أن يعود ليصطدم كانهيارات الجليد العملاقة بصفحة الماء، وقد لمع جلده أمامهم في ضوء البدر المكتمل ولمعت أنيابه ومناشير أسنانه بوضوح، ولم يكن دائماً واحد فقط من يستقل القارب لنقول إنه توهم أو تهيأ له الوحش فقط في خياله بسبب الخوف أو كثرة السكر أو مفعول الكيف على الدماغ، بل أحياناً يكون على نفس القارب صيادان، فيريان نفس الشيء في نفس الوقت، وتصلهما معا تموجات النهر واهتزازاته.

ثم، أكثر من ذلك، الوحش لم يكن يختفي أثناء النهار، أو يكتفي بمياه النهر وأغواره المظلمة العميقة، بل كان يخرج باستمرار ليتجوّل في النواحي، ويبول على الأشجار والأحجار محدداً منطقة نفوذه الكبيرة عبر ذلك البول، وأيضاً لاصطياد ضحاياه من بني البشر وجرّهم إلى الماء لافتراسهم في قاع النهر افتراساً كاملاً لا يبقي ولا يذر ثياباً ولا شعراً ولا عظاماً ولا أسناناً ولا أي شيء على الإطلاق مما قد يدّل على هوياتهم أو على أنهم كانوا على قيد الحياة يوماً.

لقد رأى كثيرون هذا الوحش نهاراً جهاراً، ووصفوه بنفس الأوصاف المطابقة تقريباً، مع اختلافات بسيطة الأرجح أن سببها هو زاوية النظر التي رأوه منها، فمن رآه من الخلف ورأى ذيله ذا السبع عقد ليس كمن رأى عينيه القيحيتين ولسانه فقط، ومن رآه من

الجانب ليس كمن رأى بطنه حين يكون رافعاً قائمتيه في قفزة، أو ظهره حين يكون نائماً داخل حفرة أو بين نباتات السمّار أو شجيرات ساحل النهر الشوكية الكثيفة. ومن رآه نهاراً ليس كمن رآه ملتحفاً بسواد الليل، كما أنه كان في كل مرة سريعاً خاطفاً لا تمسكه العين كل المسك في حال من أحواله.

ثم إن من لم يره قطّ سوى في هذه الحكايات الكثيرة وفي أوصافه وصفاته، فقد كان بإمكانه أن يرى آثار خطواته الغريبة الجبارة على الضفاف الطويلة للنهر كما على الطمي وعلى التراب في أماكن كثيرة غير متوقعة أحياناً كما حدث حين وجدوا آثاراً واضحة لخطواته داخل مقبرة الصِّدِّيقْ، وقد فسروا ذلك أنه ينبش القبور وينكشها ليأكل الموتى الجدد الطازجين حين لا يجد أحياء. كانت تلك الخطوات غريبة حقاً، ثلاثية الأصابع، لا يمكن نسبها بأي وجه من الوجوه إلى كلب ضال أو إلى بقرة أو إلى أيّ كائن معروف أو دابة من دواب الأرض. فخطوات تلك الكائنات من كلاب وقططٍ صغيرةٌ بالإضافة إلى أن الجميع لاحظ اختفاء تلك الكائنات بالكاملِ من على ساحل النهر ونواحيه على غير عادتها، بل كانت تلك الخطوات بصمات إثبات مبينة تؤكد وجود ذلك الوحش بشحمه ولحمه داخل النهر وفي كل الأرجاء وكان يمكن حتى سماع أنفاسه عبر النظر الطويل إلى خطواته. أما من لم يكفه كل هذا، فقد كان الاختفاء المستمر الغامض لسكان الحي الواحد تلو الأخر في حدّ ذاته دليلاً قاطعاً.

لكن الْمقَدَّمْ جاء ذات صباح عاقداً يديه خلف ظهره، وقد كان قصير القامة، متجهم الملامح دائماً، كثير الحركة والتلفت والرمش

بعينيه، يرتدي باستمرار نفس الجلاّبية الخفيفة الشفافة المتهرئة من الْمْليفَةْ، تظهر من تحتها سترته الصوفية السميكة ذات الياقة التي تصل حتى الذقن قبل أن تثنى، وسرواله العسكري الأصفر الباهت، وحذاؤه الغليظ الذي لم يفسده سنواتٍ طويلةً صيفٌ ولا شتاء. كان من سكان الحي هو أيضاً، وقد اختارته السلطات لمهنة المقدم تلك بعناية لما أبانه من مهارات كبيرة في تشمم الأخبار بأنفه، وإصغائه الخارق للعادة لكل صوت أو همهمة أو نأمة تصدر أو لا تصدر من مكان، وذاكرته القوية التي تحفظ كل التواريخ وأرقام أبواب الأكواخ حتى حين تكون ممحوة، وأسماء السكان وملامحهم وقبائلهم الأحياء منهم والأموات، وتطوعه الدائم المجاني لخدمة السلطة والشرطة حين تقتحم الحي بسيارتها السّتَافيتْ البيضاء الكبيرة المخططة من فوق ومن واجهتها بالأخضر والأحمر كالمرأة الواشمة.

كان يقف دائماً لصق باب سيارة الشرطة بتحفّز، موشوشاً أشياء مجهولة للشرطي، قبل أن يُصعد هذا الأخير زجاج نافذة السيارة، ويسرع بها ضاغطاً بقدمه على دواسة السرعة، مخلفاً للمقدم سحابة من الغبار، قاصداً مباشرة مكاناً ما من الحي أو كوخاً محدداً.

كان الناس يتفادونه باستمرار، فحين يصل ويسلّم يسكت الجميع، أو يغيّرون حوارهم الذي كانوا عليه، ويخوضون في غيره من الحوارات التي لا أهمية لها. كان الجميع يتوجّسون منه، ويوقرونه، ليس احتراماً له، بل خوفاً من وشاياته الدقيقة، وعلاقاته الغامضة بالشرطة، فقد كان دائماً وصوله إلى جماعة من الناس من أهل الحي تجتمع في مكان، في باحة الجامع أو أمام بابه، أو تحت الكاليتوسة،

أو أمام باب الفران، أو في جنازة أو عرس أو سُبُوعٍ داخل كوخ من الأكواخ أو قَيْطُون أو خْزَانَة، كان دائماً وصولهً بسحنته الواجمة تلك، وجبينه البارزة الصفراء، وهندامه ذاك الذي لا يتغير، وحركاته الكثيرة، وتلفته المتكرر، ورمشان عينيه السريع، ويديه المعقودتين خلف ظهره، يطبع في أذهانهم جميعاً أن الشرطة قد وصلت.

لم يكن توقيرهم له المصبوغ بصبغة الخوف والرهبة مصدره فقط خوفهم من الشرطة ومن وشاياته وإمكانية تلفيقه لما يريده ضد من يريد. بل كان مصدر ذلك أيضاً انتماؤه إلى عائلة معروفة بتكاثفها واستعدادها الدائم للمعارك بالسيوف والمُدى والشواقير والعصي.

كانت عائلته كبيرة من قبيلة سيئة السمعة لا يوقرون جاراً ولا يحافظون على عهد أو ميثاق، ولم يكن وحده من يجمع الأخبار وينقلها، بل كانت زوجته أيضاً مجندة لذلك بفاعلية كبيرة، فهي أذنه اليمنى بما تجمعه من أخبار نسائية عن الأزواج والأبناء بطرق كثيرة تعتمد العلاقات الاجتماعية الشائعة وأواصر الجيرة من تبادل يومي للزيارات بين الجارات عبر الدخول من الأبواب دون استئذان في مناسبات ودون مناسبات، وإفشاء مستمر للأسرار مقابل كأس شاي وقطعة خبز أو رغيف ساخن من المْسْمّنْ، ويكون كرم جْمْعَةْ زوجة المقدم الْعْرُوسِي على حسب خطورة السرّ وإلحاحه وندرة من يعرفونه، فقد يصل الكرم أحياناً، بإيعاز من العروسي، إلى بعض الهدايا النسائية الثمينة من كحل وسواك وأمشاط وحناء، أو حتى ذبح ديك ذي عرف بيّن من أجل قصعة باذخة من الرّفِيسَةْ أو الكُسْكُس تطبخ على شرف المرأة التي حين ستشبع ستتجشأ لا

محالة كلّ شيء بالتفصيل الممل.

إضافة إلى جمعة كان أبناء المقدم الخمسة أيضاً عبارة عن رادارات صغيرة بريئة لا تثير الشبهة، تتفرق بدقة شديدة في أرجاء الحي لالتقاط كل شاردة وواردة عبر التصنت على قصدير الأكواخ، أو اللعب بالتراب قرب أقدام رجلين يتحدثان على انفراد، أو لاستجواب أطفال آخرين من الحي في سنهم يبوحون بكل شيء دون تعذيب مقابل حلوى مَانْتْ التي تمنحها الشرطة للعروسي في كيس كبير، أو مقابل عضة حافية من شدق الخبز، وفي الغالب مقابل لاشيء.

كما أن أم العروسي شكلت بالنسبة له مَطْمُورَةَ معلومات ليس لها قاع. كلما حار في أمر خبر غابر من الأخبار أو تشابه عليه الأمر في اسم من أسماء قدماء الحي وحكاياتهم القديمة وأصل كل واحد وفصله، قصدها، وضع شيئاً من الدراهم أو طوبة سكر في يدها أو حجرها وقبّل رأسها وجلس أمامها فوق الحصيرة على ركبتيه في عتمة النّبْخ، يسألها بادئاً كلامه دائماً هكذا بسؤال كهذا:

– يا أماه، قولي لي، فأنا أعرف أنك ما شاء الله عليك ما زلت تذكرين كلّ شيء، هل كان لِيَامْنَة زوج وأولاد آخرون غير زوجها عبد النّبي وأولادها معه؟

أو سؤال كهذا:

– بالله عليكِ، قولي لي يا أماه لا حرمني الله من حسّك، فأنت تعرفين عبد المجيد الصياد أفضل مني، هل عقد حقاً على سليمة التي ورثت كوخه بعده هي وابنها أم كان ذلك مجرد كلام؟

أو هكذا:

– يا أماه، قولي لي لا حرمنا الله أنا وإخوتي من رضاك، فأنا أعرف أنك ما شاء الله عليك لا تنسين شيئاً، هل كان للحاجّ عَمّارْ أرض كبيرة يملكها أبوه باعها قبل أن يأتي إلى هنا ليغتني أم كان هناك مجردَ خَمَّاسٍ كما سمعت من أحدهم وقد غرّر بالحاجّة زهرة حتى تزوجته هي التي ورثت ما ورثت من أراض عن أبيها؟ وهل حج بيت الله حقاً؟

فتحكي له كل شيء بالتفصيل وبالتواريخ مؤرخة بدقة بسنوات الجوائح والأوبئة والجراد والطاعون والزلازل والسِّيبَةْ والفياضانات وأيام الأعياد الدينية وعاشوراء ورمضان والشهور الفلاحية القديمة. لا تنسى شيئاً رغم أنها أصبحت عمياء قعيدة لا تتحرك من مكانها فوق هَيْدُورَتِهَا حتى للوضوء بل تصلي فقط بالتيمم بمسح يديها ووجهها مراراً بحجر أملس من الصمّ الصغير قاتم اللون بارد الملمس تخفيه دائماً تحت هيدورتها لتجده بسهولة، وتبول وتقضي حاجتها في الْجَلاَّسْ.

تجيبه دائماً بنفس الطريقة، تمسح ذقنها بيدها، وهي تحدق في الفراغ بمحجريها المعتمين، ووشمُها على جبينها يبدو في حالتها تلك من الاستغراق في التذكر أكثر التصاقا بجلدها الشاحب المتغضن وبدمها وروحها العتيقة:

– العَالْمْ الله أ وليدي، أقول لك إذا كان عقلي ينفعني، يامنة الرَّحْمَانيّة دخلت على اثنين قبل دخولها على عبد النبي، نعم، دخلت على اثنين قبله، ولم يرزقها الله من الأولاد والأوتاد سوى بنت واحدة مع الثاني، أحضرتها معها إلى الحي وهي في ذمة عبد النبي، لكن

المسكينة ماتت بِبُوحَمْرُونْ وهي طفلة لم تحضْ بعد. لماذا تسأل؟

أو تجيبه هكذا:

- لا، لا، لا، فالكذب حرام أوليدي، ومن يكذب كمن يبني بيته بيده في جهنم طوبة طوبة. عبد المجيد الصياد لم يعقد على سليمة، بل دخل عليها فقط بالفاتحة كما يدخل الكبش على الشاة. لا، لا، لا. لكن من كان يعقد في تلك الأيام في الكَنَانِيشْ كأيام اليوم؟ لن أكذب، كلنا دخل علينا أزواجنا بالفاتحة، وأنت نفسك ولدت فقط بالفاتحة.

أو هكذا:

- العالم الله أوليدي، من قال لك إن الحاج عمار قد حج بيت النبي فقد كذب عليك، الناس حجّجوه فقط بأفواههم، ولم يكن حتى خماساً بل مجرد لص نعاج في الشّيَاظْمَةْ. لولا خير وخمير الحاجة زهرة لما كانت له كائنة.

ثم تشرد قليلاً ذاهلةً محاولةً تذكر أشياء أكثر عتاقة قبل أن تدير محجريها المنطفئين في اتجاه العروسي الخاشع أمامها على ركبتيه فوق الحصيرة دون حركة، كثعلب يتنصّت بتركيز شديد على خشخشة أرانب، لتسأله كالعادة:

- لماذا تسأل؟

يقبل رأسها وينهض وقد أخذ بغيته من الأخبار التي تخفى عنه، بينما تواصل هي سرد حكاية يامنة أو بّا عبد المجيد الفراكة أو الحاج عمار أو غيرهم على نفسها بصوت مسموع بتفاصيلها وتواريخها الغابرة إلى أن تدخل عليها جمعة بالشاي فتنصرفان إلى حديث آخر.

إخوة العروسي الستة الذكور، بالإضافة إلى بنت واحدة وإلى أبنائهم وزوجاتهم، كانوا أيضاً بمثابة مرجع موثوق فيه لمعرفة أخبار الحي يعود إليهم كلما احتاج إلى ذلك أو يكلفهم بمهمة فيقومون بها على أحسن وجه. لم يكن هو أكبرهم سنًّا، بل كان الثاني بعد موسى، لكن موسى لم يؤسس عائلة، فقد كان مولعاً برقص الشِّيَخَاتْ ومعاشرتهن وزيارة أكواخ القوّادات بانتظام والسكر والسهر واختلاق المشاكل والعراكات والوقوع باستمرار في يد الشرطة وفي جيبه سكين أو قطعة حشيش أو كيس كامل مليء بالكيف. لكن العروسي بتدخلاته الحثيثة كان يفلته دائماً من قبضة الشرطة قبل أن يصل الأمر إلى المحاكم والمرافعات.

جميع أهل الحي يتذكرون إبادة عائلة العروسي لعائلة أخرى قبل سنوات قليلة، فقد اشتدت العداوة بين الطرفين إلى أن وصلت حدًّا لا يمكن للسلام معه أن يعم. ذات ليلة وقد سكر موسى هاجم عائلة بَّا الزِّيتُونِي التي كانت تتكون من شابين وسبع بنات وخمسة أطفال وأب عجوز هو بّا الزيتوني الذي كان في ما مضى بائع زيتون وزيوت بالإضافة إلى صهرين للعائلة متزوجين ببنتين منها. كان الصهران غائبين في تجارة بعيدة كالعادة وهما أبناء عم.

أفرغ موسى قنينة خمسة لترات بلاستيكية مليئة بالبنزين حول كوخ عائلة الزيتوني، كان رفقته، بالإضافة إلى اثنين من أشقائه، عصابة من رفقائه من السكارى بأذرعهم العارية الموشومة بأوشام السجن بالعقارب والأفاعي، أحدهم سبق له أن جنّ سنة كاملة قبل أن يعود إليه عقله، وقد قتل أثناء تلك السنة زوجته الحامل وأمه ولم

يقاضه أحد بسبب جنونه. كل واحد منهم كان يحمل في يده قنينة خمسة لترات مليئة بالبنزين. تقدموا جميعاً وبَنْزَنُوا الكوخ جيداً، قبل أن يشعل كل واحد منهم وقيدة ويلقيها في اتجاه الكوخ من جهات مختلفة.

شبّت النار بشكل مفاجئ وهائل في الكوخ وكادت تنتقل إلى أكواخ أخرى. كانت عائلة الزيتوني نائمة، وكان ذلك مناسباً لحدوث محرقة كبيرة. سُمعت صرخات حادة للنساء من داخل الكوخ ومن خارجه، وهرع الجيران بسرعة لإطفاء النيران قبل أن تشب في الحي بكامله. كانت نيراناً وهاجة وقد بدوا بوضوح حولها بثيابهم شبه العارية وآثار النوم عليهم وشعورهم المشعثة المكشوفة وأثداء كبيرة متدلية لبعض النساء والعجائز تظهر من خلف ثياب خفيفة دون سوتيان بحلماتها الكبيرة وسراويل مهلهلة للرجال غير مزررة الفتحات، كأنهم على باب يوم القيامة، وهم يقذفون تلك النار بالماء من أوانٍ لها أحجام مختلفة أو يحاولون ردمها بالتراب.

لم ينج أحد من ذلك الحريق، رغم أن أحد الشبان من أبناء الزيتوني استطاع الخروج مخترقاً أحد جدران الكوخ الخشبية، لكنه خرج ملتهباً بالنار، ركض قليلاً متوهجاً في الظلام قبل أن يسقط ليتدحرج كزربيّة تطوى والناس يحاولون إطفاءه بردمه بالتراب وهم يصرخون صرخات مذعورة إلى أن لفظ أنفاسه والنار ما زالت مشتعلة في جسده تشوي أطرافه وتُفحم وجهه.

لم يُعرف حينها بالضبط مصدر ذلك الحريق ولا من كان وراءه، فقد اختفى موسى وعصابته أسرع من البرق كي يكملوا سكرهم

بعيداً تحت الكاليتوسة.

في الصباح الموالي كان كل شيء متفحماً. جاءت الشرطة وكان كل ما وصلت إليه رفقة العروسي هو أن بّا الزيتوني ترك الشمعة مشتعلة قرب رأسه وحين تقلب في نومه كان ما كان.

لم يمرّ على ذلك الحادث أسبوع كامل حتى سكر موسى وخرج إلى الحي عاري الصدر في عمق الليل يحمل في يده سكيناً وفي الأخرى قنينة رُوجْ، ليعلن للجميع بفخر أنه هو من أحرق عائلة الزيتوني، وأن ذلك لم يكن مجاناً بل كلفه كذا وكذا من مال لشراء خمسين لتر كاملة من البنزين، وأن من سيقف في طريقه ذات يوم سيكون مآله هو مآل عائلة الزيتوني.

وصلت الأخبار إلى كل مكان في رمشة عين، ولم يكن هناك أحد من عائلة الزيتوني قد بقي على قيد الحياة ليقاضي موسى وعائلته أو ينتقم منه. بل حتى حين عاد الصهران بعد شهر تقريباً لم يفهما شيئاً مما حصل، فقد جلسا مصدومين عند مكان الكوخ الذي ظلّ أسود قاتماً حتى بعد كنسه. الشرطة لم تفدهما بشيء واضح، وأهل الحي أخبروهما أن شمعة تسببت في ذلك الحريق كما يحدث عادة، والبعض أخبرهما أن موسى هو الفاعل، وآخرون قالوا إن بُونِيفَاصْ المجنون قاتل أمه هو من فعل ذلك.

لم ير أحد من أهل الحي أحداً من الصهرين أبداً بعد ذلك، وكانت تلك هي نهاية عائلة بّا الزيتوني برجالها ونسائها وأطفالها وأصهارها.

أخو العروسي الثالث، كان أصغر منه بسنة تقريباً، رغم أن هذا ليس أكيداً، فكثيرون يؤكدون أنه أصغر منه بدقائق فقط، لأنهما

توأم غير سيامي، فقد حملت بهما أمهما فاطنة العمياء دفعة واحدة، وولدت العروسي أولاً قبل أن تلد الْمْهَيْدِي بعده بدقائق، أقصر من العروسي وأضأل منه. كان اسمه في الأصل المهدي، لكنهم صغروه إلى الْمْهَيْدِي، لضآلته وصغر حجمه وقلة شأنه، وزعموا أن أخاه العروسي التوأم قد امتص طاقته وبركته وسَعْدَهُ وهما جنينان. من يرَهما واقفين جنباً إلى جنب لا يعتقد أبداً أنهما توأم، فلا شبه يجمع بينهما، بل يصعب عليك حتى أن تجزم أنهما أخوان تَخَبَّطا في بطن واحد.

المهيدي متزوج من امرأة ضخمة وبدينة جداً اسمها فَنِيدَة، لا تخرج أبداً إلا وهي منقبة بِقُبِّ الجلباب وبالنقاب الأسود الذي يُربط بخيط خلف الرأس لا يظهر منه إلا نصف الأنف العلوي والعينان، ولا تمشي إلا بصعوبة كصعوبة مشي تمساح، وهي تتوكأ على قصدير الأكواخ قبل أن تجلس كل دقيقة على العتبات لتستريح. لا تجتمع عادةً مع نساء الحي أمام عتبات الأكواخ ولا يُسمع لها صوت إلا وهي تنادي من داخل الكوخ على ابنتها زكية بصوت نحيف حادّ جداً ومتعب مناقض لضخامتها:

– زكيةااا... زكيةااا...

من يرَها يتبادر إلى ذهنه مباشرةً سؤال محيّر: كيف استطاع المهيدي بضآلته الشديدة مضاجعتها لإنجاب زكية؟

فتح المهيدي نافذةً كبيرة في كوخه واتخذها دكاناً، يبيع فيه كلّ ما قد يلزمك أو لا يلزمك مما يخطر أو لا يخطر على بال، من النعناع الأخضر الطري المرشوش بالماء الموضوع على صندوق خارج

الكوخ، إلى الشمع بصنفيه الصغير والكبير، إلى الوقيد، إلى التوابل والْعَطْرِيَّةْ، إلى الحبة السوداء وحب الرشاد والزعتر وفْليّو وكِينَة الرأس الخضراء، إلى فتيلة اللمبة، إلى الحلويات والنّفاخات، إلى الطحين والسكر والزيت والبوطة الصغيرة الزرقاء والشاي، إلى مقصات الأظافر، إلى الليمونادة بكل نكهاتها وألوانها، إلى الغَاسُول واللّيف والحناء والسواك والكحل ومراود التكحيل، إلى أوراق النِّيبْرُو وسجائر فَافُورِيتْ ومَارْكِيزْ بالتقسيط، إلى سم الفئران، وكل ما قد يلزم وما لا يلزم.

كان يُرى دائماً متكئاً بمرفقيه على إطار نافذة الدكان، صامتاً مصغياً باهتمام إلى الأخبار والأغاني عبر الترانزستور مترقباً كعنكبوت وصول الزبائن.

كان دكان المهيدي مزدهراً باستمرار، وحتى حين صار عجوزاً بعد موت العروسي بالزهري ظلّ مستقيم الظهر لم يتقوس كباقي العجزة لضآلته وكثرة حركته وشدة نباهته. كل مساء يشعل لمبة بوطة الغاز ذات الفتيلة البيضاء المتدلية كلسان خروف التي تنتفخ وتتوهج حين تشتعل، معلقة بسلك عبر إطار النافذة العلوي إلى أقصى اليسار. بالإضافة إلى عدة شموع مشتعلة بالداخل تضيء السلع والحلويات. كانت مساءات هادئة مطمئنة مريحة للعين بتلك العتمة في غياب كامل للكهرباء لا تشقها أحياناً إلا أشعة مصابيح يدوية متحركة في أيدي المارة، أو أضواءُ وهدير دراجة نارية تعبر المسارب المتربة بين الأكواخ، تسمع من بعيد ثم يرتفع الصوت والهدير والضوء أكثر وهي تقترب، ثم ما تفتأ أن تبتعد من جديد ببطء حتى تخفت

بالكامل وتختفي مخلفةً فقط الصمت والهدوء والسكينة ورائحة البنزين اللذيذة ممتزجة برائحة عشاءات قادمة من شقوق الأكواخ لمرق حاف أو بالدجاج أو بلحم الرأس أو رائحة وصوت نشيش بوريّ يقلى.

كان المهيدي جزءاً لا يتجزأ من هذا المشهد اليومي الثابت في الزمن الهادئ الأليف الذي عادة ما يسبق عراكاً مفاجئاً ومرعباً بالسواطير.

الجميع يتجمهرون أمام نافذة دكان المهيدي، الرجال يلعبون الكارطة نهاراً مقابل الليمونادة جالسين على صناديق والمهيدي يراقبهم باهتمام وتحفز منتظراً أن ينادوا باسمه كي يناولهم قنينة الليمونادة فَانْتَا أو كْرُوشْ أو أُورُونْجِينَا أو لاَسيكُونْ أو كُوكَا مُبرّدة في سطل ماء وهم يقهقهون بعد نهاية كل دَوْرٍ ويسخرون من الخاسر. يلعبون حتى أذان المغرب قبل أن يتفرقوا رادّين الصناديق وخَاوِي الليمونادة إلى المهيدي. الأطفال يتجمهرون أمام باب الدكان صبيحة الأعياد وبعد الخروج من الْمْسِيدْ عقب أذان كل عصر وفي كل وقت طالبين الحلوى والنفّاخات. أما الشبان فيتجمهرون باستمرار كل مساء فيما يشبه الموعد الغرامي قرب ضوء اللمبة كما قرب السّقّاية منتظرين مرور الفتيات إلى الدكان أو إلى ملء القرب بالماء من السّقّاية.

كان دكان المهيدي بالنسبة للعروسي المقدم هو مكان العمل. يتردد عليه باستمرار، ينقل إليه أكياساً غامضة ويأخذ أخرى. يقف هناك طويلاً مراقباً الزبائن، متجسساً على أحاديثهم وعلى مشترياتهم.

يستطيع عبر ذلك تخمين من تقاضى أجرته بعد خمسة عشر يوماً من العمل في البناء أو النجارة أو أشياء أخرى ومن لم يتقاض أجرته بعد. في الغالب من يأتي ليشتري كيس طحين كاملاً وقنينة زيت من فئة خمسة لترات يكون جيبه ساخناً بالمال، أما من يرسل طفله لطلب درهم شاي، ودرهم سكر سَنيدَة، أو للشّراء دون مال، مقابل كنّاش الْكرِيدِي فقط، فيكون لا يملك حتى عشاءه.

كان المهيدي يساعده في جمع هذه المعلومات المخابراتية في غيابه، وحين يحضر يفشي له كل شيء. كما أن البعض قالوا إنه كان يستعمل دكان أخيه المهيدي فقط غطاءً لبيع الكيف بالتقسيط وقناني الفراكة ليلاً بثمن مضاعف، وكان موسى يؤمّن له هذه التجارة بعد أن يعطيه قنينة فراكة أو قنينتين مجاناً.

لهذا وأكثر منه كان رجال الحي وجماعته متوجسين دائماً من العروسي المقدم، يهابونه ويوقرونه ويحترمونه احتراماً مشوباً بالذل والمهانة، فلا يجرؤون أبداً على النميمة في ظهره لأنهم يعرفون أن الكلام سيصل إليه لا محالة. كما أنهم كانوا محتاجين إليه وإلى قدراته الخارقة باستمرار، فكل من ألقت الشرطة القبض على أحد أبنائه يقصد العروسي أول من يقصد، يستنجد به ويستغيث به مقدماً الهدايا وورقة مالية من فئة خمسين درهماً خضراء اللون أو أكثر حسب الجنحة، فلا يبقى للعروسي أمام ذلك إلا التدخل كفاعل خير بالتوسط للمتوسل عند الشرطة التي تطلب مبلغاً محدداً ينقله العروسي إليها من المتوسل دون حضوره، ولا يكون بعد ذلك إلا الخير، يُفرَج عن الابن بعد يوم أو يومين على الأكثر حتى وإن كان قاتلاً.

كما أن حُمّى هدم الأكواخ وبناء بيوت من الطوب مكانها كانت قد بدأتِ بالانتشار تلك الأيام، ولم يكن ذلك ممكناً دون رخصة من القَايْدْ نفسه، فذلك طبعاً كان مستحيلا لأن أراضي الحي وأكواخه لم تكن محفّظة قانونياً لدى المحافظة العقارية، ولم تكن هناك من وثائق تثبت ملكية أصحاب الأكواخ لأكواخهم أمام القانون، بل كانوا يُعتبرون مجرد فوضويين مستولين بالقوة على تلك الأراضي التي أقاموا فوقها أكواخهم، رغم أنهم اشتروها بأموالهم أو ورثوها عن آبائهم وسكنوا فيها طيلة حياتهم. كان الحلّ الوحيد هو البناء دون رخصة، وهذا لم يكن ممكناً خلف ظهر وعيون السلطة، بل كان يجب أن يتم بموافقتها الضمنية ورضاها غير الموثّق، وكانت هذه هي مهمة المقدم الكبيرة، الإحاطة بأخبار الحي قاطبة ونقلها على طبق ساخن من فضة إلى القايد.

حين يعزم شخص علي هدم كوخه وبناء بيت من الطوب والإسمنت مكانه كان لا بدّ له من إخبار المقدم بذلك واستئذانه. المقدم نفسه يخبر القايد بذلك. القايد يطلب من المقدم استدعاء الرجل إلى المقاطعة لمقابلته.

المقدم يدخل إلى بيت الرجل مساءً يشرب عنده الشاي ويتعشى ويشرح له كيف تجري الأمور وكيف ستتم المقابلة مع القايد:

– ستضع ستين ألف ريال في قُبّك، وسأدخلك إلى بِيرُو القايد مباشرة، تسلمها له يداً بيد، منْكَ إليه، وها أنت خرجت من باب واسع، تستطيع بناء بيتك بعدها مباشرة دون مشاكل، شريطة أن يتم ذلك فقط يوم السبت والأحد في عطلة السلطة، وأن تخفي ما أمكن

السلعة من رمل وكَايَاسْ وإسمنت وحديد طيلة الأسبوع، وأن لا تقول شيئاً لأحد، فأنا فقط سأتوسط لك وساطة خير لما بيننا من ملح وطعام.

يشكره الرجل متمتماً بكلمات انكسار غير مفهومة ويضع مجبراً في يده مائة درهم ورقة قرفيّة اللون، وهو ينسحب بعد العشاء بعد أن فرغ الحي تماماً كاللص جارًّا حذاءه الغليظ في عتمة الأزقة الدامسة دون صوت ولا كحّ ولا أصداء في اتجاه بيته.

يغلق الرجل باب بيته ويأوي إلى فراشه قرب زوجته ليُخَمِّن ليلته كاملة من أين سيدبر ستين ألف ريال كاملة التي يتوجب إعطاؤها للقايد. كل مرة يتنهد ويردد بصوت مسموع:

– أ مّيمْتِي من أين سآتي بهذه الستين ألف ريال؟

تتقلب زوجته في نومها وتجيبه:

– انعس انعس، غداً مدبّرها حكيم.

من يرفض وساطة خير المقدم هذه وسماحة السلطة بغض طرفها عنه، ويتحدى القايد، يكون مصيره أسوأ بكثير من ستين ألف ريال.

تصل الأخبار سريعاً إلى المقدم. تصل هكذا عادة:

– إن فلاناً يهدم كوخه.

أو:

– إن هناك صفًّا من الطوب والآجرّ أو كومة رمل أمام باب فلان.

أو:

– إن فلاناً بدأ حقًّا بحفر الأساسات. الخ...

لا يحرك المقدم ساكناً، بل يكتفي بتفقد المكان من بعيد كل مساء

أو كل صباح باكراً جداً، يمر من هناك عاقداً يديه خلف ظهره كأنه مار فقط إلى شؤونه. يراقب بدقة مهندس إلى أين وصلت الأشغال، يعدّ الطوب والآجر والرمال والإسمنت وما إلى ذلك، مقدراً في ذهنه حسابات هندسية ومالية يعرفها هو وحده. ينتظر حتى يعلي ذلك الفلان أو أيّ فلان آخر أسوار بيته على خاطره، ويرمي الضَّالَةَ فوقها من الإسمنت الخالص لإنهاء السقف منهياً البناء بذلك، ويطبخ للبنائين الرفيسة أو الكسكس بديك من الدجاج البلدي احتفالاً، بعد ذبح ذلك الديك عند عتبة البيت قرباناً لأهل المكان.

في الغد، باكراً، يدخل المقدم إلى مكتب القايد بعد أن يطرق الباب طرقتين مسموعتين ويدفع الباب، عاقداً يديه خلف ظهره، حانياً رأسه بمهانة مصطنعة كذئب قرب عرين الأسُود. يبادره القايد بسؤال وهو لا ينظر إليه بل إلى أوراق في يده:

– ماذا هناك؟

يجيبه المقدم بتحفز وهو ما زال داقًّا عينيه في الأرض حانياً رأسه مهابة وخوفاً:

– فلان نْعَامْ أسِّي، رمى الضّالَة الْبَارْحْ.

يضع القايد الأوراق من يده، يقف ويخطو بغضب في اتجاه الباب ويقول للمقدم دون أن يلتفت إليه:

– اتبعني.

يتبعه المقدم مهرولاً في كُولْوَارِ المقاطعة الكولونياليّ الطويل ككلب صيد يتبع صياداً فرنسياً، وهو حانٍ رأسه يحرك يديه في الهواء خلف القايد تبجيلاً له كما يفعل الوزراء والحُجّاب عادة عندما

يدخلون على الملوك.

بعد ساعة تقتحم الحيّ شاحنتان خضراوان بلون العشب الذابل من شاحنات القوات المساعدة مليئتين بالمْخَازْنِيّة بثيابهم النظامية الخضراء المتشابهة وسحناتهم القروية المتجهمة وموسطاشاتهم الكثة التي ترمز إلى الفحولة الشديدة، وزَرَاوِيطِهِم ومِنُوطَاتِهِمْ تتدلى من أحزمتهم، بالإضافة إلى جرّافة برتقالية عملاقة يقودها شخص بدين، وسيارة القايد يركب إلى جانبه مساعده وفي الخلف يركب شخص يحمل في يده رُوجِسْتْراً ضخماً وإلى جانبه المقدم متحفز يطلّ من النافذة بخيلاء على أهل الحي الذين يتبعون الشاحنات والسيارة والجرّافة آخذين في التجمهر من أجل الفرجة.

ينزل القايد أولاً ويتبعه مساعده الذي يسوق، بينما يهرول في اتجاههما المقدم ليقف خلفهما. يعطي القايد بوقفته المستقيمة وهندامه المدني الأنيق جداً المكون دائماً من طقم جديد بلون مختلف حسب الأيام والفصول بضعة أوامر بيده هنا وهناك، بعد أن يعاين البيت جيداً بنفسه والرجل صاحب الروجستر يقيّد ما يسمعه من القايد. يعود القايد إلى سيارته رفقة مساعده، تنطلق السيارة بهما والمقدم يتبعها رفقة صاحب الروجستر لينحنيا لها مبايعين على هيئة الركوع الخاشع في الصلاة ورأساهما ينعكسان مشوهين على زجاجها ومعدنها الصقيل البراق.

تنطلق بعد ذلك مراسيم هدم البيت بالجرّافة تحت حراسة عشرات من رجال القوات المساعدة الأجلاف وإشارات المقدم الذي يكون في تلك الأثناء بعد غياب القايد قد استقام بخيلاء وعادت

إليه هيبته وصار يبدو وسط المخازنية والناس المتجمهرين كأنه هو القايد نفسه.

بينما يصرخ صاحب البيت وسط كل تلك الجوقة:

– اللهم إن هذا لمنكر... اللهم إن هذا لمنكر...

يصرخ ويرغي ويزبد، وقد يتمرّغ أرضاً أمامهم، بل قد يصل به الجنون أن يعتلي السقف ويهدد برمي نفسه أو برمي أحد أطفاله وبالاعتصام فوق الضّالَة هناك مقرفصاً قبالتهم وهو يصرخ:

– الرجل لا يموت إلا دفاعاً عن عرضه أو أرضه، ومن مات على ذلك فهو شهيد بحكم القانون والقرآن والسنة، ومن مسّ منكم طوبة واحدة من بيتي وعرق جبيني ودم قلبي فلن يفرّق بيني وبينه سوى الموت.

ثم يقف هناك بحيث يبدو من الأسفل لجمهرة الناس من الفضوليين المتحمسين لفرجة أكثر إثارة كأن رأسه يلامس الشمس، وكأن يديه تلامسان السحاب وهو يصرخ من جديد فاتحاً يديه مطوّحاً بهما كيفما اتفق:

– اللهم إن هذا لمنكر... اللهم إن هذا لمنكر... يا عباد الله اشهدوا... يا عباد الله كونوا من الشاهدين.

لا ينفع أيّ شيء من هذه العروض التهديدية اليائسة وهذا الصراخ مع المقدم الحديدي القلب والمخازنية الشِّداد الغلاظ وسائق الجرّافة البدين جداً.

بعد ساعة على الأكثر من صراخ الرجل ينهار أو يقفز ليؤذي نفسه فقط أو يموت بالسكتة القلبية أو يستسلم لنداءات بعض الجيران

الذين يحاولون تهدئته مادين له أيديهم من الأسفل وهم يصرخون فيه بأصوات متداخلة:

- إلعن الشيطان يا فلان، فأنت بعقلك.
- انزل أولاً ولن يكون إلا الخير.
- انزل من هناك يا فلان هداك الله، هل تريد أن تيتّم أطفالك؟
- الانتحار حراااام، لو كان حلالاً لقلنا لك نحن انتحر لكنه حرام.
- خَدِّمْ عقلك يا فلان فسخونة الرأس ترجع بالندامة.
- انزل وأسرع إلى القايد قبل أن يهدموا البيت عوض أن تضيّع الوقت هناك.
- انزل واطلب السماح من المقدم وبُسْ رأسه.

وبعضهم يستعطف المقدم بمحاولة عناقه والوشوشة في أذنه للحيلولة دون هدم البيت لكن المقدم يجيبهم متملصاً منهم مبتعداً عنهم بأنفة وتكبر وهم يتبعونه صاغرين:

- لقد صدرت أوامر المخزن وانتهى الأمر، نحن لا نلعب هنا، البيت سيهدم والبكاء وراء الميت خسارة.

تتقدم الجرّافة بعجلاتها الكبيرة التي يفوق قطرها طول شخص بالغ رافعة خرطومها العملاق ذا الأسنان الحديدية الحادة للبدء بهدم ضَالَة البيت أولاً لأنها تكون ما زالت عجينة لدنة لم تجفّ بعد، والضغط بقوة إلى أسفل على القضبان الحديدية المتشابكة التي تتخللها حتى تنزل ساحبة معها الجدران التي تبدو من بعيد وهي تسقط بتلك السهولة كأنها مصنوعة من الورق المقوى.

بعد وقت وجيز يكون البيت قد دكّ مع الأرض، والشاحنات انسحبت، والجرّافة ثنت ذراعها العملاقة وانطلقت عبر الشارع الترابي العريض والأطفال يتبعونها صارخين متقافزين وبعضهم يلصقون بمؤخرتها كالقُراد حتى مسافة بعيدة، والحشاشون والسكارى والمُشَمْكَرِين سيجدون بعد سقوط الظلام غنيمة هائلة غير متوقعة في حطام ذلك البيت من طوب وآجرّ وقضبان حديد وأسلاك ومسامير يعيدون فيها البيع وكلّ ما يكسبونه من ذلك الكنز يكون لهم ربحاً خالصاً حلالاً لا خسائر فيه.

يكون هذا هو مصير من يتحدى السلطة والقايد والمقدم، ويكون هدم مثل ذلك البيت أمام الجميع درساً قاسياً لمن قد تسول له نفسه فعل شيء مشابه.

عوض ستين ألف ريال فقط، تصير الخسارة فادحة تصل إلى الملايين وإلى شلل أو إعاقة أو موت صاحب البيت دون بيت ودون حتى كوخ.

لكن سلطة المقدم هذه وجبروته لم تكن لتمارس على الجميع، بل تكتفي بتصيّد الضعفاء فقط ممن لا يملكون قوة ولا حيلة ولا أبناء عاقّين عاضّينَ في حلمة الثدي. فهذا القانون الذي يديره المقدم بحرفية وسلاسة وكفاءة كبيرة لا ينسحب مثلاً على عائلة صحراوة التي يوقرها الجميع ويتجنبونها بمن فيهم القايد نفسه.

بل إن عائلة صحراوة هي التي كانت تفرض قانونها على القايد وعلى المقدم، إذ أصبح لها بعد وفاة بّا موحا الصحراوي بسنوات أذرع وركائز بعيدة في الدولة أبعد بكثير من سلطة مجرد قايد، بل

تصل إلى كبار المسؤولين وربما بعض الوزراء الذين يسهلون لها كل شيء ويفتحون لها كلّ الأبواب المنيعة.

وأكثر من ذلك فقوتها المالية بعد أن أصبحت تتاجر في الحشيش أيضاً، وسمعتها الطيبة وعدد أفرادها الكبير جداً الذي فرّخته سنوات طويلة عبر أكثر من جيل، كان وحده كافياً لحمايتها ولخوف المقدم وأخيه موسى وكلّ عائلته منها وخدمته لها وغضّ بصره عما تفعله. فقد كان يكفي تطوع فرد واحد من أفرادها أو حتى مجرد شْمْكَار متشرد مقابل قطعة حشيش أو كيس من الكيف ليدقّ سكيناً أو سيفاً في بطن المقدم في الظلام، ينهي بذلك طنينه المزعج الشبيه بطنين ذبابة.

بل حتى القايد نفسه كان يخاف على سلامته الجسدية، فعصابة صحراوة تستطيع حشد أكثر من شاحنتي المخازنية التي يتبجح بهما ومهاجمة بناية المقاطعة بجيش كامل من المجرمين واليائسين والقتلة بالسيوف والسواطير ومحاصرته واختطافه وحرق كل السجلات والأرشيف كما حدث زمن القايد السابق.

لم يكن ذلك في مصلحة السلطة أن تصطدم بعصابة كتلك، بل كانت مصلحتها أكبر في بقائها وتشعبها أكثر، لأنّ الجميع كان يربح من تجارة عصابة صحراوة تلك، والرابح الأكبر كان هو السلطة نفسها.

كما أن سلطة المقدم لا تسري على كثيرين آخرين من السكارى والحشاشين والعائلات الرهيبة والعائلات التي راكمت مالاً كثيراً ونفوذاً كالحاج عمّار زوج الحاجة زهرة الذي كان هو أول من افتتح

على طرف الحي أكبر دِيبُّو لبيع الرمل والكاياس والإسمنت والحديد وكل مواد ولوازم البناء. فقد كان الحاج عمّار صديقاً مباشراً للقايد يجالسه مراراً على مرأى من الناس ليشربا قهوة أو شاياً داخل بِيرُو القايد بالمقاطعة أو حتى في ديبُّو الحاج عمار أحياناً بعد أن يزوره بسيارة السلطة الإِمْ رُوجْ، ويتبادلا النكات والقهقهات كصديقين.

أيضاً لم تكن سلطة المقدم تسري في شيء على العربي الأعور، فالمقدم رغم كل نباهته ودهائه وموهبته الكبيرة المتأصلة في تسقّط الأخبار والأسرار إلا أنه لم يعرف أبداً من هو العربي الأعور، ولم يهتم أبداً لأمره، ولم يتجسس عليه أبداً. فحتى بعد أن باعت عائلة صحراوة الفران القصديري القديم وانتقلت إلى بقعة أخرى أكبر في الجهة الأخرى الأكثر كثافة من الحي والتي تبعد مسافة ميل تقريبا لتبني فراناً آخر بالطوب هناك، تسقّط العروسي أخبار البائع والشاري فقط دون أن يهمّه أمر العربي الفرناطشي الذي بدا له دائماً لا يختلف في شيء عن أكوام الخشب وأغصان الحطب.

حتى حين كان يعتلي أحياناً هضبة جبل الرايسي ليراقب من هناك جزءاً كبيراً جداً من الحي بعينيه حادتي النظر كعيني الحدأة ويرصد حركات وسكنات السكان من ذلك العلو عبر ذلك المشهد البّانُورَامي الهائل للأكواخ والبراريك المتداخلة والسقوف القصديرية اللانهائية، لم تكن حركة العربي داخل منطقة السياج الخاصة به وهو ينقّل الأغصان من ركن إلى ركن دون توقف أو حتى وهو عائد بخيشة الحطب على ظهره والكلبة لايكة تتبعه تثير انتباهه أو يضيع وقته في مراقبتها حتى ثانية واحدة.

لقد كان العربي الفرناطشي غير مرئي تقريباً للجميع وليس فقط للمقدم، ولا أحد يتذكره لا في ظهوره ولا في غيابه، ولم تكن تسري عليه أيّ سلطة ولا قانون، لا سلطة المقدم ولا سلطة القايد ولا سلطة المجتمع ولا سلطة الدولة ولا سلطة العالم، ولا حتى سلطة الله.

جاء المقدم ذلك الصباح متجهماً، وأخذ يطوف أرجاء الحي، حازماً يديه خلف ظهره كنذير الشؤم، وهو يُعْلِمُ من يراه أن يحضر صلاة العصر في الجامع لأنّ لديه كلاماً هامًّا من القايد على الجميع سماعه. حين لا يجد سوى طفل أمام الباب يقول له:

– قل لوالدك موعدنا العصر في الجامع.

عند صلاة العصر كان عدد المصلين في الجامع مضاعفاً أكثر من المعتاد كما لو أنها صلاة الجمعة أو التراويح. سلّم الإمام بعد التحية الأخيرة واستدار جهة المصلين للتسبيح والدعاء. قام المقدم قبل أن ينفضّ الجمع واجتاز بعض الصفوف رافعاً كل مرة رجله فوق أكتاف الجالسين قبل أن يصل إلى جنب الإمام. حدّق جيداً في الناس مديراً رأسه يميناً وشمالاً كأنه يعدّهم أو كأنه يتأكد ممن حضر وممن لم يحضر، ثم صرخ مخاطباً الناس بحزم رافعاً صوته:

– اسمعوا يا جماعة الخير، كنت في الصباح فقط عند القايد، وقد أخبرني بأمور مستعجلة وخطيرة، لأعلمكم بها، وما أنا كما تعلمون إلا رسول مبين. لقد اكتشفت الدولة عصابة من السياسيين الملحدين الذين لا يصومون رمضان، ويسعون إلى تخريب البلاد والعباد، ويوزعون منشورات مغرضة ضد جلالة الملك نصره الله وأيّده، ومقرهم في الدار البيضاء، لكن لهم فروعاً في كل مكان وفي كل جائحة سوداء، ولهم فرع أيضاً هنا في حيّنا.

حين قال هذه الكلمة سُمعت همهمات في الجامع كله واستنكارات وصرخ البعض من الصف الخلفي:

- اللهم إن هذا لمنكر...

وصرخ آخر:

- عاش صاحب الجلالة...

فصرخ الجميع وراءه مردّدين ما قاله بهياج مدة نصف دقيقة تقريباً:

- عاش صاحب الجلالة... عاش صاحب الجلالة...

رفع المقدم يده فسكتوا بعد ثوان ليواصل كلامه:

- دعوني أكمل يا جماعة الخير، قلت لكم إن لهؤلاء الكفرة فرعاً هنا، وهدفهم هو انضمام عدد أكبر منكم أو من أبنائكم إلى عصابتهم، وزرع الكفر والفتن والزندقة والقلاقل في البلاد والعباد والعياذ بالله. لكن المخزن لن يسكت على ذلك، بل سيضرب بيد من حديد. بل وأقول لكم شيئاً بيننا حتى نكون واضحين وإخوة اشتركنا الطعام والملح جميعاً، ليس هناك جنية قرب المقبرة ولا وحش داخل النهر، بل المخزن هو الذي يعتقل هؤلاء المساخيط المارقين ليؤدبهم، فكل من اختفى فجأة ولم تظهر له ظاهرة أبداً فهو منهم وقد أوقعته فعاله في شباك القانون، فلا يلومنّ إلا نفسه، فيد المخزن طويلة كما أقول لكم دائماً، وستصل إليهم واحداً واحداً أينما كانوا عاجلاً أم آجلاً حتى وإن اختبأوا في الْمَطَاميرْ. هذا ما عندي لأقوله لكم هذه الساعة يا جماعة الخير، الدولة مقلوبة عاليها على سافلها هذه الأيام، فهناك أمور خطيرة تحدث، والحاضر منكم يبلغ

الغائب، وتقبل الله صلاتكم...

ثم همّ بالخروج فعلت همهمات الحاضرين وصرخاتهم وتحلقهم حوله قبل أن يهتفوا جماعةً مدةً من الوقت:

- عاش الملك...
- عاش صاحب الجلالة...
- عاش المليييك... عاش المليييك...

كان السّحاب وحده حينها البصير العليم بمن هو العربي الأعور، وبماذا كان يفعله بالضبط. لقد كان هو الجنية وهو الوحش الذي استوطن النهر. سنوات طويلة ظلّ غير مرئي للناس، غير مثير لأيّ اهتمام، لا أحد يهتم لأمره أو يراه، شفافاً بينهم كالهواء المشبع بالوباء.

كانت طريقته في القتل والإعدام، وفي مسح آثار الجثة والجريمة عن الوجود مسحاً كاملاً بقذفها داخل بيت النار، طريقة محكمة لم يعهد سكان الحي مثلها. فالطريقة الوحيدة التي كانت منتهجة بعد كل جريمة قتل بين سكان الحي هي الدفن في مكان ما من القفر أو تقطيع الجثة بشاقور إلى قطع صغيرة وحشوها في أكياس بلاستيكية سوداء ورميها على مراحل ليلاً في النهر أو تركها في مكانها والهرب.

في حالة الدفن سرعان ما ينبش كلب جائع الحفرة أو ينتبه أحدهم لأمرها، وفي حالة الأكياس عاجلاً أم آجلاً يقذف النهر بعضها إلى الضفاف الموحلة. يفتح الصيادون أو العابرون الأكياس، أو يتجمهرون حول الحفرة لاستخراج الجثة، وسرعان ما يشيع في الحي بكامله خبر الجريمة، فيتجوّق الناس حولها. في الغالب توجد الجثة كاملة لم تتعفن بعد، أو توجد يد وذراع داخل كيس وعليها وشم واضح أو رِجل عرجاء أو سنٌّ فضيّة. يعرف السكان وشم من ذاك، وجثة من تلك بربط الشبه أو الوشم أو العرج أو الخاتم أو حجم الجثة أو شكل الأسنان بالشخص المختفي فيصرخون:

- هذه يد فاطنة العبديّة...

أوِ:

- هذه رجل امْحَمّدْ ولد السَّرْغِينِي...

أو:

- هذه جبين الْحُوسْ الشَّلْحْ... الخ...

تبدأ بعدها مباشرة سلسلة من الانتقامات المتبادلة بين العائلات، أو تدخل الشرطة على الخط وسرعان ما تجد القاتل الذي غالباً ما يهرب إلى أرض ميساوة أو إلى الولجة أو إلى بادية بعيدة قبل أن تصل إليه.

أما العربي الأعور فكان ينهي كل شيء دائماً في ساعات، يعدم كل شيء إعداماً كاملاً، محولاً الضحايا بأوشامهم وأسنانهم وخواتمهم والعلامات القديمة المميزة على أجسادهم إلى معراج كثيف من الأدخنة تصعد بهم مباشرة إلى السماء ورماد ناعم كالطحين تذروه الريح.

كان يحميهم من التعفن، يجنبهم أن تنبش الكلاب الضالة أو الضباع قبورهم وتعبث بأعضائهم. ينهيهم على الطريقة الهندوسية الناجعة، رغم أنه لم يكن هندوسياً.

كل ما كان يقوم به بعد أن يضع الكيس داخل الحفرة، هو قذف مزيد من الأغصان الجافة داخل بيت النار. تستعر النار سريعاً لتصل أمام عينه الوحيدة الزجاجية وروحه السوداء وقلبه الميت إلى أقصاها بتدرّج ألوانها من الأحمر الداكن إلى البرتقالي المتوهّج إلى الفاتح المهدّئ للأعصاب إلى الأبيض الثلجي الصاهر إلى الأزرق الصافي،

في تدرجات متواترة، تريح قلبه وخاطره، يصل صهدها إلى وجهه وكيانه ووجدانه فيتحمس أكثر ويسرع الدم في عروقه أكثر وتتلبسه سعادة باطنية عجيبة غامرة.

يحمل الجثة لِيُموضعها على حافة بيت النار، قبل أن يدفعها جاهداً بعمود شبيه بركيزة البرّاكة إلى الداخل، ثم ما يفتأ يجلس قبالتها وقد اختفت بالكامل عن نظره داخل النار تحت كومة الأغصان واللهب والجمر، فتتحول ملامحه فجأة إلى الضيق والضنك الشديد والحزن العميق، كأنه يولي الجثة حقها من العزاء، ثم تنتابه موجة بكاء بلا دمع، ونشيج صامت يتحول بالتدريج إلى قهقهات جنونية مسيطر عليها.

تكون النار قد أخذت أكثر في الاستعار، والجثة قد بدأت بالتفحم والتجمّر، ومدخنة الفران قد أخذت تضخ دخاناً كثيفاً غامضاً شديد السواد والدكنة، والكلبة لايكة تجوب أرجاء الساحة بتحفز أكبر للمهاجمة والنباح، والخبز في الجهة الأخرى من الفران يكون قد تقرمش داخل الفرن.

يخرج العربي الفرناطشي عادة إلى صيد ضحاياه عصراً، بعد أذان العصر مباشرة، ويعود مباشرة بعد أذان المغرب. لكنه قد يفعل ذلك صباحاً أحياناً، وفي أي وقت آخر أيضاً، حسب مزاجه وحدسه وقدرته الوحشية على تشمم الهواء والإحساس باللذة والجريمة والموت الصامت على بعد أميال. حين يكون صيده مسائياً كما في غالب المرات، يضعه داخل الحفرة بينما تظلم السماء بالتدريج بعد دقائق.

يشعل ناراً صغيرة وسط باحة السياج ويضع فوقها إبريق الشاي.

يجلب الماء مرة واحدة في الأسبوع من البئر في الصباح الباكر، بينما يزوده أصحاب الفران مرة في الأسبوع أيضاً بعلبتي شاي وقالبي سكر، ويومياً يضع له الطَّرَّاحُ كفايته من قطع الخبز التي يجود بها أصحاب الخبز على الطراح وعليه، وأحياناً مرقاً أو كسكس عرسٍ أو جنازةٍ أو حلوى بيتيّة أو سمكاً خرج للتو من أتون الفرن، على حافة ثقب شبيه بالنافذة يطل منه الطراح على الجانب الأيسر الأقصى من الساحة الذي لا يظهر منه شيء تقريباً سوى آخر نقطة في السياج عبارة عن صبار كثيف يكاد يلامس تلك النافذة وأعشاش عناكب مخربة تلمع خيوطها في الشمس، لولا أن العربي يشذبه باستمرار كي تصل يده دائماً إلى حافة تلك النافذة التي يدق فوقها أحياناً بقضيب صغير من الحديد يتركه دائماً تحتها. يعني ذلك الدق على النافذة بالنسبة للطراح أو لأصحاب الفران أن مؤونة العربي الأعور من الشاي والسكر والنعناع والكيف قد نفدت، فيزودونه بالمزيد. حين يتأخرون عليه أو يتجاهلونه لا يكتفي بالطرق والنقر فقط بل يقف جنب تلك النافذة دون أن يظهر وجهه لمن بداخل الفران ويصرخ بلغة مقتضبة مغمغمة:

- الخبز... الخبز...

أو:

- السكّر... السكّر...

أو:

- الكيف... الكيف... الكيييف...

أحياناً يضع الطراح رأسه داخل تلك النافذة حتى يبدو كسلحفاة تطل من قوقعتها وهو يحاول جاهداً أن يتبين الساحة دون جدوى قبل أن يصرخ في العربي بقلق أن يؤجج نار الفران أكثر لأنها بردت والخبز ظلّ عجيناً فوق زلّيجات الفرن. لكن هذا نادراً ما يحدث، فالعربي لا يغفل أبداً عن ناره، لا يفارقها ولا يتركها تذوي إلا ساعات قليلة من الليل، فقد كان يحسها أهلَه وعائلتَه وأصدقاءَه وأحبته الذين لن يستطيع العيش بدونهم، كان يحسها بمثابة زوجته التي تدفئ أوصاله ويبث فيها كل لواعجه وأسراره.

يضع الجثة في الحفرة المقابلة لبيت النار وهي ما زالت داخل الكيس مموهة بالأغصان، ويهتم قليلاً بأمر نفسه؛ يعدّ الشاي على نار صغيرة جداً وسط الساحة، يضيف إليه النعناع، يبول على الصبار واقفاً، أو يجلس لِيخْرَأَ قبالة بخار كثيف يصعد فجأة من إبريق الشاي، وعندما ينتهي ويقف ليُصعد بنطاله تسرع لايكة لتشمم مؤخرته ثم لتشمم خرائه ولحسه وأكله وهو يربت على ظهرها ويدفعه بعود في اتجاهها.

يحمل إبريق الشاي وينزل إلى الحفرة ليتعشى. يظهر الشاي داخل كأسه داكناً جداً له لون دخان الأغصان الكثيف وطعم الحرائق والغرق في الوادي وقت الفيضان والسقوط من مكان شاهق على الذقن والفم فوق التراب.

يُخرج شقف السبسي ويشعله، ينفخ رماده في اتجاه نار الفرن التي تكون قد أخذت تضيء وجهه أكثر في تلك الساعة من المساء ليس بسبب تأججها بل بسبب غياب ضوء الشمس.

يمد يده إلى الكيس للتأكد من أن الجثة ما زالت داخله. يتلمس الكيس أكثر وبيده الأخرى يحكّ رأسه، ينزع طاقيته ويضعها أرضاً ليريح رأسه، ثم يملأ شقف السبسي من جديد بالكيف.

يجد ملمس الكيس لدناً، رطباً، وناعماً. يبعث ذلك في نفسه أشياء كثيرة، يحرك لواعجه وحنوّه عميقاً. يبدأ بتلمس الكيس أكثر فأكثر فيسرع الدم في عروقه وينشط ويشعر بلذة وانتشاء أكبر وهو يتلمس أماكن ومواضع حساسة من الجثة أكثر ليناً ورطوبة ونعومة فيبدأ زبّه بالانتصاب.

يخرج الجثة من الكيس ويضاجعها.

لا يهم في شيء جثة من؟ فكل شيء يصير بالنسبة له سواسية سواءً في سواء في تلك العتمة على تلك الإضاءة الذاوية المتراقصة لجمر نار جهنم آخر النهار. يكون داخل الكيس رجل، أو امرأة، فتاة أو شاب، شيخ طاعن في السن له لحية طويلة أو عجوز عبارة عن كومة عظام فقط، طفل أو طفلة، لا يفرق معه ذلك في شيء.

يعرّي الجثة من ملابسها، أو يجردها من سروالها فقط، ينزل سرواله، يبحث عن مكان الثقب، يكون زبه قد انتصب بحدة واستقام استقامة شديدة كقطعة الحطب الجافة، يبصق في يده بصاقا كثيفاً، يبلل رأسه جيداً بذلك البصاق حتى يصير زلقاً، يضع حشفته فوق الثقب ويدفعه بقوة حتى يدخل كاملاً ثم يبدأ مباشرة برهز الجثة بسرعة وعنف رهزاً متداركاً على إيقاع محدد شبيه بإيقاع تقطيع الحطب بالشاقور صعوداً ونزولاً صعوداً ونزولاً حتى يبلغ غايته القصوى من الانتشاء واللذة قاذفاً منيه الساخن المُخْتَلّ داخل

أحشائها الباردة.

حين تكون الجثة أنثى يمدّدها على ظهرها ويرفع رجليها إلى كتفيه ويعالجها، أما حين تكون رجلاً يقلبها على بطنها في أسهل وضع ممكن للإيلاج. يستريح بعد ذلك وقد أصعد سرواله دون أن يزرّره ودون أن يكون تحته تبّان، والجثة قربه ما زالت مقلوبة على ظهرها أو على بطنها. يملأ لنفسه كأساً أخرى من الشاي ويأخذ أنفاساً أخرى أكثر عمقاً وطولاً من السبسي وهو يدخل يده داخل قميصه بين فينة وأخرى ليحكّ صدره أو بطنه ويتأمل بعد ذلك أظافره السوداء على وهج الجمر الذي يكون قد أخذ بالخفوت أكثر، أو يحك زبه وخصيتيه بيده ويشمها شاعراً بإثارة قصوى إزاء تلك الرائحة. بعد ذلك يقف، ينزل سرواله ويعالج الجثة من جديد، لكن هذه المرة بالتقبيل والعناق الجيّاش والعض واللحس والمص والصفع والركل قبل الانتصاب والإيلاج.

يبقى على هذه الحال ما شاء لنفسه أن يبقى قبل أن يغطي الجثة أخيراً بالأغصان والأوراق وينام متوسداً كومةً طرية من الأغصان الغضة الرقيقة الخضراء التي يستنشق رائحتها عميقاً مرتاحاً منهكاً إنهاكاً لذيذاً لا يحلم ولا يتقلب في نومه ليلته كاملة.

يستيقظ مع الأنفاس الأولى للصباح، وصياح الديكة، ونباح لايكة، ودخول نسائم نقية إلى الحفرة، وأذان بّا حّو الشجي الكئيب وهو يصيح على حواف العتمة والسكينة قبل الجلبة والضجيج والضوء الفاضح، في أهل الحي:

– الصلاااة خير من النوم...

- الصلاااااااااااة خير من النوم...

قبل وصول بُوخْرِيصْ الطراح الذي يفتح الفران باكراً، يشعل العربي ناراً متوهجة بقذف الأغصان التي كانت فوق الجثة داخل الفوهة، وأغصان وجذوع أخرى يجلبها من الساحة، يحمل الجثة، يموضعها على حافة بيت النار ويدفعها بالركيزة.

أحياناً يلبسها ثيابها قبل ذلك، وأحياناً يقذفها عارية، وبعد ذلك يقذف لها ثيابها قطعة قطعة لتلبسها داخل جهنم.

بعد أن أنهى المقدم خطبته في الجامع، ذهب إلى حال سبيله ليتجسّس على الحي وأهله. لم يعد من معنى لحكايات الجن والوحوش الخرافية. فقد كان كلام المقدم واضحاً قاطعاً كمنشار، وقد ألف الناس تصديق كلامه لدقته الشديدة دائماً ومعرفته الشاملة بتفاصيل تخفى عنهم عادة. إضافة إلى أن المقدم لم يكن أميًّا بالكامل كأغلبهم، بل كان يستطيع فك الخط وقراءة الرسائل وأوراق الضرائب والاستدعاءات وفهمها وإن بصعوبة. لقد حفظ القرآن كاملاً تقريباً في الْمْسِيدْ لأنه داوم فيه مدة طويلة، فخالتي جمعة العمياء كانت تريد له أن يصير فقيهاً، ولم تكن عمياء حينها. لذلك كانوا ينادونه في حضوره بالسِّي العروسي عوض العروسي فقط أو العروسي الشّمْشَامْ كما في غيابه. إضافة إلى أن المقدم لم يؤلف تلك الخطبة من دماغه، ولم يخترع تلك الأخبار الخطيرة، بل كان مجرد رسول من القايد إلى أهل الحي، والجميع كان يعرف جيداً من هو القايد ويعرف ثقل ووزن كلمته في الميزان.

في تلك الأيام أخذت أحاديث أهل الحي منحى آخر مختلفاً جديداً

عليهم، يمكن القول عنه إنه منحى سياسي. فقد أصبح الجميع تقريباً سياسياً بين ليلة وضحاها بشكل من الأشكال، يتحدث ويحلل ويفتي في أمور الدولة البعيدة عنه كل البعد وفي القضايا الكبرى والشؤون الخطيرة ذات الصبغة السرية، على غير عادتهم، إذ إنهم عاشوا حياتهم كاملة مستغنين عن هذه الأمور مستقلين عنها لا يعتبرونها من شؤونهم ولا تدخل بأي شكل من الأشكال ضمن لائحة اهتماماتهم اليومية أو أولوياتهم كما أنها لا تؤثر فيهم شيئاً. فرغم أن الحي يوجد في مدينة تعتبر عاصمة على حد علم الجميع، داخل دولة لها نظامها الحاكم ودستورها وقانونها وبرلمانها ووزاراتها ومؤسساتها وبناياتها العالية أحياناً وقصورها وعسكرها وبوليسها ووجهها المدني الحديث في شوارعها الرئيسية كشارع محمد الخامس أو شارع الحسن الثاني، إلا أن أهل الحي ظلوا دائماً في معزل عن كل هذا رغم أنهم يعيشون ويموتون داخله.

كلهم دون استثناء جاءوا من القرى والبوادي المجاورة أو البعيدة إلى هذه المدينة كالنازحين من حرب بعد أن باعوا أراضيهم الفلاحية ومواشيهم. اشتروا في هذا الحي أو في أحياء أخرى بقعاً أرضية بنوا فوقها أكواخهم أو استولوا على أراض أخرى فارغة لم تكن لأحد في زمن غابر وحتى الدولة لم تكن تهتم لأمرها. حَشُّوا النباتات الشّوكية بالمناجل وقطعوا الغابات العشوائية ومهدوا القفار واستوطنوها كما استوطنوا أيضاً بعض التلال والأجراف والمغاور والهضاب المنحنية أحياناً بحدة شديدة.

مع الوقت لم تعد هناك تقريباً من بقعة فارغة، فقد اكتسحوا

المدينة كالجراد الجائع وعمروا كل بقعة فيها. متزاحمين داخل أكواخ صغيرة تزداد صغراً باستمرار ببيع نصف كوخ لنازح جديد والاكتفاء بنصف كوخ.

لكن هؤلاء النازحين في حقيقة الأمر لم تكن تعني لهم المدينة شيئاً سوى الفرار من الجفاف الطويل والقحط الذي لحق أراضيهم الزراعية البور والاستنجاد بوعود المدينة السحرية بسهولة العيش والثراء السريع. تعلموا بسرعة حرفاً ومهناً لا تحتاج إلى كثير من الوقت للتعلم، كمهنة الكوّاي أو الخياط أو الخراز أو الصباغ أو النجار أو الخضار أو السفناج أو الصياد أو البناء أو الشوّاف أو العطار أو البراح أو حارس الفيلات والسيارات بزرواطة في يده أو الحمال أو الخدمة في البيوت وجزّ عشب الحدائق أو الالتحاق بالعسكر دون رتبة أو الطبخ في الأعراس والمآتم أو حفر الأساسات أو حفر الآبار أو بيع البقُّولة والنعناع أو بيع الحنّاء أو سياقة الشاحنات أو حفر القبور وحراسة المقابر الخ...

لم تكن تعني لهم حياة المدينة سوى أنهم يعيشون داخلها بأجسادهم ويحلمون بامتلاك الثروة يوماً ما بالعثور على كنز أو على خيشة مليئة بالمال في حفرة أو داخل سرير حلفاء. أما عقولهم وأرواحهم فظلت دائماً هناك، بعيداً، هائمة كطيور الأطلال فوق سماء بواديهم التي هجروها.

لم تؤثر فيهم المدينة بشيء على الإطلاق، فقد ظلوا قرويين فلاحين مزارعين ورعاة داخلها، باستثناء أنهم بلا أراض فلاحية وبلا محاريث وجرّارات وماكينات حصاد. أما المواشي والدواب

والدجاج فلم يستطيعوا فراقها، بل ظلت ترافقهم كأفراد عائلاتهم إلى الأبد، فأغلبهم يربي دجاجاً يسرح ويمرح داخل البيت وخارجه، وأرانب، وقططاً، وكلاباً هزيلة تأكل الخبز اليابس والنخّالة وقشور البطيخ والخراء وتلحس البول، ويملك حماراً أو بغلاً للتنقل وجرّ العربات وحمل السلع والحطب وللتجارة، كما أن بعضهم كان يربي أبقاراً داخل كوخه الصغير أو أغناماً وماعزاً للعيد الكبير يسرحونها نهاراً على ضفة النهر وفوق هضبة جبل الرايسي وقرب السكة وداخل المزبلة الكبيرة، أو يجزون لها عشباً وحشائش من أماكن بعيدة.

كان من البديهي والمعتاد أن تسمع خوار بقرة وأنت تتغدى أو نباح كلب أو نهيق حمار أو أن ترى تَيْسان يتناطحان قرب السّقّاية أو أن تدوس بحذائك فوق روث كبير ذي قشرة سوداء جافة وباطن رطب وطري ممتلئ بعجّة خضراء كالحناء، أو أن يداهم ثور برّاكتكم فيهدمها ولن تستطيع أن تستوعب ما حصل حتى يكون الثور واقفاً أمام سريرك هائجاً يحرك قرنيه في الهواء باحثاً عن هدف واضح لينطحه.

هذا كله وأكثر جعل أهل الحي خارج سياق العالم الكبير وتطوراته وأحداثه وما يتغير فيه أو لا يتغير. لا علاقة لهم بالزمن الحقيقي للوجود والتاريخ والجغرافيا والمدن والأمم الأخرى، فقد كان لهم زمنهم الخاص المستغلق الذي لا أحد يعرفه أو يحسه أو يعيه إلا إذا كان واحداً منهم، زمناً بدائياً بسيطاً محدوداً ودائرياً كزمن دورة الفصول الأربعة لم يلمسه التعقيد بعد ولم تعكر دورته بعد منغصات الحضارة والتمدن. كانوا يعيشون في المدينة بمنطق البادية

وزمنها الفلاحي المنبسط إلى ما لانهاية دون إسمنت يحده ولا موانع سوى الشمس والهواء والسحاب البعيد. لم تستطع المدينة فرض قانونها المعقد عليهم، فقد كانت أدمغتهم محمية عن ذلك بقشر شبيهة بقواقع السلاحف. أحضروا معهم من القرية كل ما يلزمهم للحياة في أي مكان كان، سواء صحراء أو جليداً أو مدينة أو حتى بحراً. أحضروا معهم قانونهم وأعرافهم وفهمهم البدائي والحاذق في نفس الوقت للذات وللآخر وللعالم وللسياسة وللاقتصاد ولكل شيء. فقد كان نظام الجماعة والفقيه والوجهاء والأعيان والفلاحين وشيخ القبيلة والحلال والحرام والأمثال الشعبية الضاربة جذورها في زمن غابر هي قانونهم ودستورهم وطريقة حياتهم حتى في عمق عاصمة تنحو أكثر في اتجاه التمدن والتعقيد والقراءة والكتابة. سوى أن ذلك القانون كان ناجعاً ومناسباً أكثر في البادية حين كان عددهم أقل وكانت تفصل بين كل اثنين منهم مسافات كبيرة من الحقول والبساتين والحدود. أما داخل المدينة فقد أصبحوا متلاصقين بعضهم يطل على بعض من النافذة أو الباب وبعضهم يرى عورة بعض حين يأتي امرأته أو يقضي حاجته.

كانوا يعيشون قانونهم داخل الحي وأعرافهم وتقاليدهم القديمة تلك نفسها ناظرين عبرها ومن خلالها إلى كل الدولة وكل العالم، مفسرين أخبار المذياع عبرها، معتبرين أن الدولة ليست سوى قبيلة كبيرة، والملك شيخها، إلاّ أنه مقدس أكثر من شيخ قبيلة صغيرة، بل تقارب قداسته، وهيبته، واستحالة رؤيته بالعين المجردة ولمسه، ومقامه العالي مقام الله تقريباً، والمخازنية والعسكر والبوليس والقُيَّاد

والباشاوات هم ملائكته وخدمه الذين لا يعصون له أمراً. أما البشر من أصنافهم هم وأشباههم، فهم مخلوقاته العديدة الخطّاءة العاصية الناكرة للنعم والجميل في أغلب الأحيان.

كان بعضهم ما زال ينادي الملك بالسلطان، رغم أن هذا اللقب تغير منذ سنوات سابقة، وكان لوقع هذه الكلمة، سلطان، في نفوسهم، وجاهة وهيبة وجبروت وهيلمان يفوق حتى هيلمان الله.

المقدم لم يكن يعي كل هذا، لكنه كان يستخدمه بالسليقة وبطبيعته الذئبية التلقائية دون سابق وعي أو تفكير لتحقيق مصالحه ومآربه، فقربه من السلطة بالوشاية والخدمات العديدة التطوعية واحتياج القايد والشرطة والدولة كلها الدائم إليه كانت استعارة واقعية وليس مجازية فقط عن قربه من روح الدولة والمخزن العميق وإن في آخر درجات سلمه، وتلبسه هو أيضاً بشكل من الأشكال سلطة القايد وسلطة الملك وسلطة الله على العباد وانصهاره في تلك السلطة بحيث يصير اسمه ملخِّصاً لها كلها بكثافة شديدة وحضوره الجسدي أمام السكان هو بالضبط حضور تلك السلطة.

كان خوفهم منه ورهبتهم من السلطة والمخزن أكبر من كرههم له أو لها أو رغبتهم يوماً في الانتفاض عليه وعليها رغم قهرها لهم، بل كانوا يحاربون ذلك الإحساس الشرير داخلهم باستمرار كلما انتابهم، بالاستغفار بعد كل صلاة، فقد كان مصدره الشيطان لا محالة، إذ إن التمرد أو الثورة أو الاحتجاج أو الخروج على السلطان، خليفة الله في الأرض، كانت تعني بالنسبة لهم بالضبط التمرد والثورة والاحتجاج والخروج مباشرة، على الله، الشيء الذي يساوي رأساً

ودون كثير من الفلسفة، خسران الجنة، والعذاب الأبدي في جهنم، وليس فقط عذاب الدنيا الفانية الذي يغوصون فيه حتى العنق.

بعد خطبة المقدم البيّنة ظهر أمامهم الحق واضحاً وزهق الباطل، أصبحوا في الغد فجأة جميعاً محللين سياسيين لا يشق لتحليلاتهم غبار. لم يعد هناك من ذكر بعدها أبداً لجنية المقابر أو لوحش النهر، بل اعتبروا الذين حكوا تلك الحكايات عن الجنية والوحش مجرد مخرفين لا يفقهون في السياسة شيئاً.

كثرت اجتماعات الجماعة في باحة المسجد بعد كل صلاة وتحت الكاليتوسة وأمام دكان المهيدي وفي كل مكان، وكثرت معها الأخبار الجديدة والإشاعات حول أن فلاناً أو فلاناً الآخر سياسي من زمرة المفسدين الملحدين الآبقين، وكان لزاماً على الجميع حضور تلك الاجتماعات للتبرؤ من تلك الزمرة بشتمها وشتم أفرادها العاقين الذين جلبوا الموت والخراب والعار للحي، وإعلان ولائهم للمخزن وللملك شخصياً باسمه، علانية، بصوت جهوري أمام الجميع، ومن يتخلف عن ذلك تثار حوله الشكوك والأقاويل. بل وخرجت الجماعة بقرارات واضحة صارمة بحضور إمام المسجد السّي العياشي والمقدم السّي العروسي وأغلب الوجهاء تُلزم الجميع، من بينها أن يُعَلّم بصباغة حمراء قانية بيت كل من ثبت تورطه في انتمائه إلى جماعة الملحدين، ومقاطعة ذلك البيت مقاطعة كاملة، لا يزوجونه بناتهم ولا يبيعون له ولا يشترون منه ولا يسلّمون عليه وإن سلّم لا يردّون.

كلما فُقد شخص جديد ولم تظهر له ظاهرة أو قُتل أصبح يعني

ذلك مباشرة أنه جنى على نفسه بزندقته وسوء أفعاله. يجتمعون ويقصدون بيت أهله وفي يد أحدهم الذي يكون غالباً إما دْحْمَانْ الأعرج البرّاح أو المحجوب الصبّاغ سطل صباغة حمراء، يضعون على باب الكوخ علامة حمراء سميكة عبارة عن خطين متقاطعين.

كان كوخ إمام الجامع ملاصقاً للجامع، ومن الجهة الأخرى ملاصقاً لكوخ بائع جَافيلْ، كوخاً شاسعاً يربي فيه ماعزاً ودجاجاً وبقرة تدرّ حليباً باستمرار، بالإضافة إلى شجرة تين يبيع تينها حين تثمر. بينما كان كوخ الْفَاطْمي بائع جافيل ضيقاً بحجم صندوق الوَقيد، ولم يكن من الوجهاء بل من أرذل القوم لا جاه له ولا مال ولا أولاد يفاخر بهم الأمم، سوى ما يكسبه من تجارته الكاسدة تلك لا يكفيه حتى لمؤونة نفسه ومؤونة زوجته زَايْدَة الصمّاء إلا بتقتير شديد ومشقة نفس، فقد كانت ثيابه مرقعة، ونحافته الزائدة عن الحد تدلّ على سوء تغذيته، ورائحة جافيل تفوح من ثيابه ومن جلده ومن روحه باستمرار حتى داخل عرس أو صبيحة عيد، ومزاجه المتجهم الحاد يدلّ على نبذ الجميع له، وظهره قد تقوس قليلا قبل الوقت لكثرة دفعه العربة مليئة بالقرب في الحفر والعقبات والمطبات صيفاً وشتاءً.

ذات مرة دفع إمام المسجد جدار كوخه طيلة الليل في اتجاه باحة كوخ الفاطمي. في الصباح بدا واضحاً أن كوخ الإمام قد سطا على كوخ بائع جافيل مسافة متر على الأقل. أخذ بائع جافيل بالصراخ والاستغاثة بالجماعة:

– اللهم إن هذا لمنكر... اللهم إن هذا لمنكر...

تجوّق الناس والأطفال فعقدت الجماعة اجتماعاً مستعجلاً قبل

صلاة الظهر. بحثوا في النازلة من كل جوانبها المرئية وغير المرئية. سألوا الجيران واستعملوا حبلاً لقياس مساحة كل كوخ على حدة ومقارنة مساحته بمساحة الكوخ الآخر. أعلن أحد الوجهاء بصوت مرتفع، وكان حاجًا، أن إعلان الحكم سيكون في المسجد مباشرة بعد صلاة الظهر. صرخ بّا دحمان البراح وهو رجل عجوز وحيد أعرج بلا عمل وبلا أحفاد ولا أولاد ولا أوتاد ولا زوجة سوى ما يجود عليه به الإمام من صندوق الجامع، صرخ مبرّحاً يطوف أرجاء الحي جيئة وذهاباً بتحفز عاقفاً يديه عند فمه كمؤذّن:

– لن تسمعوا إلا أخبار الخير يا أهل الخير، ومحاكمة بائع جافيل ستكون بعد صلاة الظهر، والحاضر يعلم الغائب... لن تسمعوا إلا أخبار الخير يا أهل الخير، ومحاكمة بائع جافيل ستكون بعد صلاة الظهر، والحاضر يعلم الغائب...

بعد صلاة الظهر قالت الجماعة على لسان الحاج مغيث، بينما ظل الإمام صامتاً على غير العادة، حانياً رأسه داخل تجويف المحراب قبالة المصلين كعريس، قالت على لسان الحاج مغيث:

– إن الظالم هو بائع جافيل، والمظلوم هو الإمام، وإن بائع جافيل لا يأتي للصلاة في وقتها رغم أن كوخه لصيق بالجامع تقريباً، ولا يساهم في صندوق الجماعة إلا بالنزر اليسير رغم أرباحه الكثيرة من تجارته تلك التي ورثها عن أجداده، وعليه الآن التقدم أمام الجميع لتقبيل رأس الإمام، والاعتذار له، وذبح ديك لعشاء الجماعة بعد صلاة العشاء تكفيراً منه عن ذنبه وعن الأتعاب التي سببها لوجهاء الجماعة.

رفض بائع جافيل هذا الحكم، قام وسط الجامع رافعاً يديه إلى أعلى كالمخبول وصرخ محتجًّا:

– اللهم إن هذا لمنكر... لن يقبل الله منكم هذا دنيا ولا آخرة...

وقف الحاج مغيث وكان يرتدي كالعادة جلباباً من الصوف الخالص وشاربه محفّف بدقة عند الحلاق وليس في البيت، ولحيته خفيفة جداً تظهر من خلالها النعمة على خدّيه ويعتمر طربوشاً مخزنياً أحمر له شكل زورق ورقي مقلوب، وقد بدا الفرق واضحاً جداً بين هيئته المحترمة الأنيقة وهيئة بائع جافيل المهترئة، وبدا واضحاً جداً أيضاً أنه من المستحيل أن يكون كلام الحاج مغيث خطأ ويكون كلام بائع جافيل هو الصواب. قاطعَ بائعَ جافيل:

– إلعن الشيطان يا الفاطمي فالجماعة قد حكمت عليك ولم يسبق لنا أن رأينا أحداً يحتج على حكم الجماعة قبلك...

صرخ الفاطمي في وجه الحاج مغيث:

– اللهم إن هذا لمنكر... هل يعني ستعرف الجماعة مساحة كوخي أفضل مني؟...

صرخ أحد المصلين من مكانه في الفاطمي وهو جالس صالباً يديه حول ركبتيه كالأسير:

– إلعن الشيطان يا الفاطمي واخجل من الحاج مغيث على الأقل فهو أكبر منك سنًّا...

ثم صرخ آخر من الصف الخلفي:

– بل على الأقل احترم حرمة الجامع...

نظر الفاطمي جهة الصوت ليتبيّن صاحبه الذي كان امْحَمّدْ ولد

السَّرْغِينِي فصرخ في اتجاهه:

– أنا أحترم حرمة الجامع أفضل منك، وأنت بالأحرى هو من يجب أن تحترم حرمته إن كنت مؤمناً حقاً وتعرف ما هي الحرمة، وألا تكذب على الله وتنافق في بيته...

جاء صوت بّا رحّو المؤذن الأعمى حادًّا من قرب المحراب وكان صهراً للسي العياشي الإمام الذي زوجه بنته رقية نقّاشة الحناء:

– لقد زوّدتها كثيراً يا الفاطمي، فكّر في مصلحتك، أنظر لمن ستبيع جافيل غداً إن تحديت الجماعة دون حياء هكذا...

همهم الجميع مستنكرين:

– لقد زودها الفاطمي...

– اجلس يا الفاطمي...

– إلعن الشيطان...

– عد إلى رشدك فقد اتهمت الإمام زوراً...

– خف من مولاك...

– احمد الله أن الجماعة لم تُغرّمك مالاً...

رفع الفاطمي وجهه ويديه إلى أعلى في اتجاه سقف الجامع القصديري العالي نسبياً مقارنة بسقوف الأكواخ وصرخ:

– حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الله ونعم الوكيل فيكم جميعا... اللهم انتقم من الظالم... اللهم انتقم من الظالمين أجمعين...

وهمّ بالانصراف حاثًّا الخطو باستعجال قافزاً الصفوف راكلاً دون قصد بعض الأكتاف يكاد يتعثر بها ويسقط وسيقانه النحيفة

جداً السمراء الملفحة بالشمس تظهر من أكمام سرواله الْقَانْدْرِيسي الفضفاف، وحين بلغ الباب استدار وصرخ:

– اللهم إن هذا لمنكر يا جماعة البهتان، ولن تروا مني اعتذاراً ولا ديكاً ولا أرنباً ولا صلاة في هذا الجامع، بل الليلة سأعيد دفع الكوخ إلى مكانه...

وواصل انصرافه موسّعاً الخطو بعصبية مقوَّساً في مشيته أكثر من العادة يكاد يسقط وهو يشتم بكلمات بذيئة مغمغمة ويحتج بيديه.

في الغد عُلم بعد تحريات دقيقة، وتحقيق موسّع، وشهادات أدلى بها الجيران، وشهادات أخرى من مجهولين لم تذكر أسماؤهم حفاظاً على السرية، أن سلوكيات الفاطمي بائع جافيل مشبوهة، ولا تُعجِب، وتحركاته سياسية محضة، وأنه ينتمي تأكيداً بالحجة والدليل إلى زمرة الملحدين آكلي رمضان، ويستعمل عربة جافيل لتوزيع منشورات مغرضة.

جاءت الجماعة وسطل الصباغة في يد دحمان البراح وعلّموا كوخه بالأحمر.

عمّت الحي فوضى عارمة لشهور. كثرت الاختفاءات الغامضة، والتعليم على أبواب الأكواخ، والجثث التي توجد في الصباح ملقاة هنا وهناك، في زقاق ضيق، على السكة، داخل المقبرة فوق قبر، معلقة بحبل على الكاليتوسة، مقطعة بسكين أو بشاقور داخل أكياس، متعفنة فوق سقف بناية محول الكهرباء المعطل، أو قذفها النهر تتأرجح على الساحل بعيون مفتوحة أو بمحاجر أفرغها البوري، ولم تكن الشرطة مهتمة كثيراً لما يحصل، فقد كانت تصل دائماً متأخرة

بعد فوات الأوان، تسجل في محاضرها أسماء وعناوين وشهادات عيان، وتقيّد الجريمة كل مرة ضد مجهول.

أصبح الجو مناسباً داخل الحي لتصفية الحسابات بفظاعة بين العصابات والسكارى وتجار الكيف والحشيش والشراب، بل تضاعف عدد العصابات بشكل مهول، إذ أصبح بإمكان كلّ ثلاثة شبان أو أربعة تشكيل عصابة خاصة بهم، وتميزت هذه العصابات الصغيرة الجديدة بالوحشية الشديدة وبقلة الشرف والمروءة، كعصابة الشعبة، عكس عصابة صحراوة العريقة التي هدد وجودَها ونفوذَها هذا الأمر، فأخذت على عاتقها مسألة حسمه بإعادة القانون إلى الحي، فتضاعفت الفوضى إثر ذلك، وطفحت إلى السطح وحشية تلك العصابة بعد أن كانت خفية سنوات طويلة، فتضاعف عدد المفقودين، وعدد المختفين، وعدد الجثث، وازدهرت أكواخ الدعارة وتضاعف عدد القوادات من الأرامل والمطلقات وزوجات المساجين المحكوم عليهم بالمؤبد والهاربين من حكم قضائي والمختفين، فكان الجو سانحاً حتى لزوج أن يقتل زوجته التي شكّ في خيانتها، أو أخ لتصفية أخيه بسبب خلاف حول الإرث، أو جار شتمه جاره، أو حتى من أجل لا شيء، وكانت جثث القتلى والمفقودين والمختفين تعتبر مباشرة جثث ملحدين مارقين شيوعيين ثائرين على النظام وعلى الملك وعلى الله، يدفنون دون أن تصلي عليهم الجماعة صلاة الجنازة في الجامع، ودون طقوس عزاء وحزن، فكانت السياسة قد بلغت أوجها داخل الحي على هذه الحال التي استمرت سنوات طويلة.

حين ولدتُ كان المناخ الطبيعي للحي ما زال هكذا. لعبت بسيوف وسكاكين خشبية رفقة عبد الرحمن ورشيد وأطفال آخرين متشبهين بأبطال الحي من كبار القتلة ومروجي الكيف والحشيش، معتبرينهم في سرّنا وحتى في جهرنا قدواتنا العليا التي يجب أن نحتذي بها وأن نطمح لنبلغ مراتبها المتقدمة في الإجرام حين نكبر، فكنا نتتبع قصصهم وأخبارهم، ونتنافس حول من يحفظ بدقة ألقاب وسنوات سجن كل واحد منهم دون خطأ، ونربض على مبعدة منهم وهم يسكرون، منتظرين أن يقذفوا لنا قناني الروج الفارغة لنبيعها لبّا حَيْسُونْ عند مدخل حيّ دوّار الحاجّة، بعد أن نشمها بعمق، أو نملأها بالماء ونشربها حتى نسكر ونتعارك معربدين متمايلين شاتمين بعضنا بأقذع الشتائم، منتظرين أيضاً أن ينهي الكبار سكرهم لتبدأ فرجة العراكات بالسكاكين والسواطير والانتقامات، ومن سيغلب من، ومن ستنغرس السكين في بطنه أو وجهه أو تقطع أصابعه أو أحد أعضائه، ومن سيظل سليماً، ومن سيموت، ومن سيظل حيا، مستعدين للهرب حين يحمي وطيس المعركة، أو حين يستدير سكير ليهاجم المتفرجين بسكين أو بقنينة روج مكسورة يمسكها في يده من عنقها وهو عاري الصدر ونحن حفاة بواطن أقدامنا سوداء بالتراب، مليئة بسيكاتريسات وجراح شظايا الزجاج، وجيوبنا وأيدينا مليئة بالحجارة مترقبين اقتحام سيارة الشرطة الوَاشمَةْ للحي لنرجمها كما ترجم الزانية.

لم يكن الإجرام عيباً في تلك الأيام، بل كان فضيلة ومزية كبيرة ومدعاةً للشرف والتفاخر والبطولة الرجولية التي لا تشوبها شائبة

الجبن والتخنث. لم يكن في الحي بكامله مكتبة ولا كتب سوى القرآن في الجامع قرب المحراب، ولم يكن هناك معلم في الحي ولا موظف حكومي يرتدي بذلة وربطة عنق، ولا محام ولا مهندس ولا وزير ولا شهادات دراسية تعلق على جدران الأكواخ، بل لم يكن هناك سوى عصابة صحراوة وسكيري السبت وأكواخ القوادات والهاربين الجدد إلى الولجة وإلى أرض ميساوة، والجثث على ساحل النهر بمنسوب جثة في اليوم تقريباً في الأيام العادية التي يعمّها السلم والأمان، فلم نحلم أبداً سوى أن نكبر سريعاً لنصير زعماء عصابات لنا شهاداتنا التخرجية من السجن حسب عدد سنوات الحبس ونوع الجنحة الجنائية والوشم حتى يكون لنا شأن عظيم ومكانة لائقة واحترام داخل الحي.

شكلنا عصاباتنا نحن أيضاً ضد عصابات أطفال آخرين متنافسين على الزعامة بالعراك واحداً ضد واحد فوق قمة هضبة جبل الرايسي قبالة الحي أو فوق طمي الوادي أو فوق السكة الصدئة المهجورة في تصفيات منظمة، داعين بعضنا للمواجهة كالكبار، وكان مسموحاً لنا بالعضّ أثناء العراك، ففقد كثيرون منا آذانهم أو أصابعهم أو ظلت ندبات العض ترافق إلى الأبد أنوفهم أو أماكن أخرى حساسة في أجسادهم كعضات كلاب ضالة.

نسبح إلى الضفة الأخرى من النهر في اتجاه الولجة، نتوغل عميقاً داخلها حتى نبلغ أخدوداً مغطى عند آخره ببعض القصديرات، نوصل إلى سليمان أخي رشيد بعض الأكل والسجائر والحشيش وأشياء أخرى يرسلها إليه عبرنا أصدقاؤه وأمه داخل كيس بلاستيكي

لا يُدخل الهواء تفادياً لدخول ماء النهر إليه. يسألنا بلهفة عن أخبار الحي وأخبار أمه وأصدقائه وأخبار الشرطة والعصابات. أحياناً نفتح الكيس قبل أن نصل إليه، نخرج قطعة الحشيش، نقسمها إلى نصفين، نخبئ نصفاً في مكان معين حتى نعود إليه، ونعيد النصف الآخر إلى الكيس. أصبحت له لحية شعثاء نبتت حتى في جزء كبير من عنقه، وسمرة مضاعفة، وهزال واضح، وأسنانه صارت صفراء أكثر. كذئب مطرود من القرى كان ينظر طويلاً بحسرة بعينيه الصغيرتين من ذلك الموضع البعيد إلى الحي الذي يظهر من هناك مجرد بقعة رمادية صدئة عملاقة كبقع البنزين تحت شاحنة.

كان يضع باستمرار سكيناً كبيرة داخل حزام سرواله المتهرئ منتظراً النهاية في أي لحظة. كان يسأل رشيد باستمرار عن أمه. حين كنا نغيب عنه طويلاً خصوصاً شتاءً، كان يتدبر الأمر بمهاجمة المارة أو بعض الحظائر أو بعض الرعاة لسلب بعض المال أو السجائر أو الأكل أو اللباس أو جدي صغير أو دجاجة أو خروف، يشعل نار أغصان ويأكل اللحم مشوياً وحده دون ملح ودون خبز. أحياناً يقصد الضفة ليمده بعض الصيادين ببعض السمك والسجائر. حين تضاعفت الاختطافات والجرائم أكثر في الحي بسبب السياسة كان بإمكانه العودة مراراً إلى الحي ليلاً وأحياناً البقاء أياماً طويلة داخل كوخ من أكواخ أصدقائه يأكل ويشرب ويسكر ويدخن الحشيش ويستحم ويحلق ذقنه ويزور أكواخ القوادات قبل أن يعود كالمتصوف إلى أخدود الولجة. الفرق بينه وبين المجرمين الآخرين الذين كانوا مسؤولين عما يحدث داخل الحي ولم يكونوا مضطرين للهرب إلى

الولجة، هو أن القضاء أصدر ضده حكماً غيابياً بالمؤبد، بينما لم يصل الآخرون غيره حتى إلى المحاكم إذ اعتُبروا القدر والجنية والوحش واليد الخفية للمخزن وللنظام العام وللعدالة.

بعد أن باعت عصابة صحراوة الفران القديم إلى عائلة أخرى، لم تمرّ سنة على ذلك حتى شبت نار مفاجئة في الفران ليلاً، أتت عليه بالكامل. تحلق السكان حول تلك النار محاولين إطفاءها، بعضهم أخرج الماء عبر أوان من الأكواخ وبعضهم هرع إلى السقّاية للاستعانة بمائها، لكن النار كانت أكبر وأقوى حتى من خراطيم مياه شاحنة إطفاء، وقد زادها الحطب استعاراً وهمجية فانتقلت إلى أكواخ مجاورة.

في الصباح وصلت شاحنة الإطفاء بعد فوات الأوان، وسيارتا ستافيت كبيرتين مليئتين بالشرطة. كانت الحصيلة مروعة. احترق الفران كاملاً، وجزء كامل من الأكواخ كانت تشكل لوحدها جزيرة صفيح وقصدير وزنك جاوز عددها خمسة عشر كوخاً وربما جاوز العشرين، وسبعة وعشرين جثة متفحمة وربما أكثر، وعدداً كبيراً من المصابين بحروق تتراوح بين الطفيفة والخطيرة، والأدخنة كانت ما زالت تتصاعد سوداء داكنة بكثافة شديدة إلى سماء الصباح الزرقاء الصافية.

كان العربي الفرناطشي أحد المحروقين داخل نار جهنمه الكبيرة، فقد وجدوا جثة متفحمة بالكامل ملقاة على بطنها قرب حفرة بيت النار. قالوا إنها دون شك جثته.

غير بعيد كثيراً عن الفران كان هناك كوخ يطلّ على المزبلة

الكبيرة. كان ذلك الكوخ هو بيت عائلة رشيد. كان والده أعور وله صفات العربي الفرناطشي نفسها وانطواءه نفسه، كان اسمه العربي أيضاً، وظلت قصة حياته لغزاً محيراً، فقد قيل أنه كان فرناطشيا في فران معروف في دوار الحاجّة، وأنه كان متزوجاً وله من الأبناء ثلاثة، ولد وبنتان. كان يعيش حياة عادية في الظاهر رفقة زوجته وأبنائه، داخل كوخ يملكه، يغيب عنه طيلة النهار ليعمل في الفران، لا يعود إليه إلا وقت الغداء وبعد أذان العشاء لينام. كان يبدو شخصاً عادياً إلى حد بعيد رغم سحنته المريبة وانطوائه، إلى أن طَجّ ذات يوم من ذلك الحي ومن الفران الذي شبت فيه النار مرتين لولا أن أهل الحي أطفؤوها في المرتين قبل أن تستعر تاركاً الزوجة والأبناء دون أن يعرفوا إلى أين ذهب. كان سلوكه الانطوائي قد تضاعف، وجرعات تدخينه الكيف قد زادت، كما أنه أخذ يكلم نفسه بصوت مرتفع ساهماً ويشحذ شاقوراً باستمرار مصرحاً كل مرة أن العيد الكبير على الأبواب وعليه أن يكون مستعداً له. مما جعل الزوجة تتأكد أن الرجل قد جن.

بدا لها أمر اختفائه بديهياً، بل أفضل من بقائه إلى جانبها وجانب أطفالها وفي يده ذلك الشاقور. كان عمر الولد تسع سنوات وعمر البنت التي تليه سنتين وعمر الصغرى بضعة شهور وقد ماتت قبل أن تفطم، وكان ذلك الولد في الحقيقة هو سليمان، وهذا الشخص هو العربي الفرناطشي نفسه وليس أحداً غيره قبل أن يصل إلى حينا وحيداً مقطوعاً من شجرة، مجهول النسب لا أحد يعرف ماضيه، لا يكلمه أحد وهو لا يكلم أحداً، وقد زامن ذلك بناء فران صحراوة فكان منذ

ذلك الحين وحتى احتراقه فرناطشيَه الأول والأخير. حدث كل ذلك قبل ولادة رشيد. ظلت زوجته حادّة الشّلْحة وكانت أكبر منه بكثير أو أن الكبر ظهر عليها دون أن يظهر أبداً عليه، ظلت وحيدة رفقة أطفالها فامتهنت التسول سنوات قبل أن تمتهن الخدمة في بيوت حي راق اسمه أكْدَالْ. البعض قال إنها امتهنت الدعارة بفتح فخذيها وليس الخدمة في البيوت. مرّت سنوات طويلة والعربي منقطع كل الانقطاع عن العودة إلى كوخه في دوار الحاجة. حتى عاد ذات يوم متخفياً. فتحت له حادة فجحظت عيناها لمرآه. كانت بمفردها في البيت تلك الساعة. لم تعرف لماذا عاد وقد أصبحت له ملامح المجنون الذي يتعقل دقائق فقط قبل أن يعود إلى جنونه. هل كان تعب من الوحدة في فران حينا؟ هل كان قد ظن أن أمره انكشف في فران صحراوة فقرر الهرب؟ هل اشتاق إلى أبنائه؟ لا أحد يدري. جلس وظل يحرك يديه وركبتيه كأنه يرتعش وعينه الوحيدة تتفحص الكوخ كأنها تبحث عن شيء في سقفه أو خلف سقفه. ارتعبت حادة لوجوده هناك حين تذكرت سليمان، إذ كان توعُّد سليمان لأبيه العربي مستمراً حين شب عوده، كان يسأل أمه عنه باستمرار فتقسم له أنها لا تعرف مكانه، لا يصدقها فيسألها من جديد كل يوم بعد أن يعود سكراناً معربداً متمايلاً قبل أن يسبها ويسبه ويسب الرب ويدفعها أحياناً بعنف لتسقط أرضاً ثم يصفق باب الكوخ خلفه ويمضي متمايلاً في ظلام أزقة دوّار الحاجّة.

كان سليمان لا يفكر سوى في قتل والده انتقاماً منه، فقد قال للجميع بعد أن قتله أنه فعل ذلك لأنه اغتصب أختيه أمام عينيه مراراً،

اغتصب الكبرى، واغتصب حتى الرضيعة حين كانت تتركها أمه رفقته وتذهب إلى سخرة بعيدة يرسلها إليها فماتت إثر ذلك. بعد ذلك عرف الجميع، دون أن يقول ذلك سليمان، فقد استنتجوه فقط وخمنوه، أنه اغتصبه هو أيضاً مراراً وتكراراً.

صرخت حادة في العربي أن يذهب من فوره. لم يهتم لكلامها، فأخبرته الحقيقة لتخيفه أن سليمان سيقتله إن عاد ورآه وعرف أنه هو. لم تكن في حقيقة الأمر خائفة على العربي أن يُقتل على يد سليمان، فقد كانت تتمنى موته في أعماقها، بل كانت خائفة على ابنها سليمان أن ينتهي به المطاف في الحبس إلى نهاية حياته. ظلّ العربي جالساً غير مستوعب بوضوح كلامها وجحوظ عينيها. همّت بمهاجمته لطرده، أمسكها من يديها وسحبها لتسقط، كانت متعبة بالقهر والعمل الشاق فسقطت منهارة أنفاسها تتسارع كأنه سيغمى عليها. رفع تَحْتِيَّتَهَا وأنزل سروالها وهي تنتحب وتقاومه مقاومة ضعيفة لكنه سرعان ما أولجه فيها ورهزها رهزاً عنيفاً كما يرهز الجثث قرب بيت نار الفران حتى قذف داخل رحمها منيه القيحي الحارق. فقدت وعيها. ظل يتأملها لحظة كما يتأمل جثث ضحاياه وقد ظنها ماتت. فكر أن يحملها على ظهره إلى فرانه في حيّنا، لكنه تعقل واستقام بخفة ورشاقة قط ضاجع قطة. خرج وعاد إلى الفران كالهواء دون أن يراه أحد أو يهتم لأمره أحد. بعد أسابيع كانت قد حملت برشيد فتأكد للجميع أنها لم تكن تعمل في بيوت أكدال كما كانت تدعي، بل قحبة في أمكنة مجهولة. كاد ذلك أن ينهي حياتها حين علم سليمان بحملها فدفعها حتى اصطدم رأسها بركيزة الكوخ

محاولاً إسقاطه من بطنها، لكن الأوان كان قد فات لإسقاطه.

بعد أربع سنوات على ولادة رشيد كانت أخته ميلودة قبل عام من ذلك قد تزوجت رجلاً أرمل من حيّنا لقبه عْبِيقَةْ وهي ترخيم لاسم عبد القادر، كان عضواً في عصابة صحراوة فدبروا له كوخاً غير بعيد عن الفران يطل بابه على الزبّالة الكبيرة. اختفى عبيقة في ذروة الاختفاءات التي طالت أهل الحي، ثم ظهرت جثته بعد أسبوع على اختفائه متأرجحة على ساحل النهر مثقّبة كالغربال بأكثر من مائة طعنة. ورثت عنه مليودة الكوخ وطفلاً رضيعاً وطفلين آخرين بنتاً وولداً من زوجته الأولى الميتة. لم يكن من الممكن أن تظل وحيدة رفقة ثلاثة أطفال فقد خافت أن يلحقها هي أيضاً الانتقام إذا ظلت دون حماية أو أن تزلق قدمها في اتجاه الدعارة، فاقترحت على أمها بيع كوخ دوار الحاجة وإعطاءها نصف ثمنه والالتحاق بها في حيّنا للسكن رفقتها في كوخها الكبير نسبياً المقابل للزّبّالة الذي سيصبح بناء على ذلك كوخ العائلة كاملة.

كان سكر سليمان وانحرافه قد زاد عن الحد وعراكاته الكثيرة مع أقرانه من سكان دوار الحاجة قد أخذت تهدد حياته أكثر فأكثر. بان للجميع أن اقتراح ميلودة كان مثالياً، وقد ساهم إغراء حادة لسليمان بإعطائه نصيباً مهمًا من ثمن بيع الكوخ في إسالة لعابه تجاه الرحيل في أسرع وقت، وذلك هو ما كان.

وصل رشيد إلى حيّنا وعمره أربع سنوات، لا أتذكر شيئاً من ذلك، بل كل ما أتذكره هو أن رشيد وعبد الرحمن وصبية آخرون وأنا معهم قد نبتنا هنا منذ الأزل كدُومِ هضبة جبل الرايسي. لم يكن

رشيد ولا ميلودة قادرين على تذكر وجه والدهما العربي، فميلودة كانت صغيرة جداً حين طَجّ، بينما لم يكن رشيد موجوداً. أما سليمان فكان في ذهنه مجرد صورة مضببة لقضيب مدبب أعور، إن رآه قد يتذكره وقد يختلط عليه مع خلق الله الكثيرين خصوصاً بعد كل تلك السنوات. حادة لم تعرف في الشهور الأولى بأمر سكن العربي خلف فران صحراوة، لكنها عرفت بعد شهور وتأكدت من ذلك فانخطف قلبها وانقلع من مكانه بعد أن كان قد ثبت قليلاً شهوراً لم تدم، وكان ما فضل في يدها من ثمن الكوخ قد تبخر مع الريح. مرضت وغارت عيناها في محجريهما وتضاعفت وساوسها. أما سليمان فكان قد تحول بين ليلة وضحاها إلى مؤمن صالح مواظب على الفرائض والصلاة في الجامع متأثراً ببرنامج إذاعي ديني، وقد أهمل لحيته هارباً بذلك من ماضيه محاولاً التكيف بهذه الطريقة مع الحي الجديد قبل أن يحلق لحيته من جديد ويعود إلى السكر والعربدة والعراكات والاندماج الكامل في الحي رفقة أصدقائه الجدد. العربي لم يكن يعرف شيئاً من كل هذا أو يعبأ به، لقد كان غائصاً في عالمه السري الدخانيّ فقط، لا يغادره أبداً ولا يجد راحته وسكينته سوى داخله. لم يكن يعرف أن زوجته وأبناءه يقطنون كوخاً لا يبعد عن ساحته المسيجة بالصبار أكثر من مائتي متر، لم يكن يعلم أن حادة أنجبت له رشيداً، ولا أن ميلودة أنجبت له حفيداً وأنه أصبح أخيراً جداً. لم يكن يعلم شيئاً من كل هذا ولا سواه، كل ما كان يعلمه هو وهج نار السعير.

مرّ زمن على تلك الحال، عاد سليمان إلى التزامه الصلاة

والاعتكاف وإسدال اللحية وارتداء الفوقيّة البيضاء، فقد كانت تنتابه هذه النوبات الإيمانية بين فينة وأخرى وخصوصاً بداية كل رمضان حين كانت تنتاب الحي كاملاً موجة مفاجئة من الإيمان الغامض والخشوع وامتلاء جامع الحي عن آخره بالمصلين كل تراويح. مرضت حادة من جديد وضعف بصرها إلى حد بعيد وبدا أنها رقدتها الأخيرة في الفراش. قررت أن تزوج سليمان بعد أن هداه الله قبل أن تموت، وكان قد أخذ يحاول هدايتهم جميعاً إلى الإيمان والصلاة ويلزم أخته ميلودة بالحجاب وعدم الخروج من البيت وحدها أبداً دون محرم حتى بسبب وفاة، ووعد ببدء العمل نجاراً مع بُوعَزَّةْ النجار صهر المقدم العروسي باعتبار أنه تعلم هذه الحرفة حين كانت ترسله أمه وهو طفل إلى نجار في دوار الحاجة كي يشتغل ويساعدها على المصاريف ويتعلم أن يعتمد على نفسه. تأثرت حادة كثيراً وغمرت السعادة قلبها لأول مرة في حياتها رغم مرضها الشديد واقتراب أجلها الذي أخذت تراه يزورها بين ساعة وأخرى في فضاء الكوخ المعتم على شكل إزار أبيض طائر يشع بنصاعته كالنور، فقررت ذات مساء أن تفشي لسليمان سرًّا طالما أثقل صدرها بعد أن لاحظت تعقله وصلاحه وابتعاده عن طريق الرذيلة والشر. كان هدفها أن تؤكد له أن رشيد أخوه الشقيق وأنها لم تمتهن الدعارة أبداً بل حافظت على نفسها وعلى شرفه رغم كل الظروف المريرة التي حملتها على ظهرها سنوات طويلة وتجرعتها كالسم وحدها. أحست بروحها تغادرها إلى جنات الخلد وأحست بسلام كامل مع نفسها وتجاه حياتها رغم كل شيء وأحست بعمق

وصدق أنها تسامح زوجها العربي على كل ما فعله بها وبأبنائها بل وتشفق على حاله تلك داخل ذلك الفران الشبيه بجهنم وتحن لعناقه عناقاً محموماً ببكاء مرير ولوم وعتاب أمومي ينتهي بتصالح لا كدر بعده. أرادت أن يعرف سليمان كل شيء، أن يعرف الحقيقة كاملة، أن يعرف أن رشيد أخوه وأنها شريفة وأرادت أن يسامح والده لأنه لم يفعل تلك الأشياء إلا بسبب حمقه وطفولته التي لم تكن أفضل حالاً من طفولته هو وأن يخرجه من الفران ويعيده إلى البيت. باحت له بكل شيء والدمع يسيل من عينيها سخيناً وابتسامتها تبدو كأنها لم تعد من هذا العالم بل من عالم السكينة والحكمة والاطمئنان. قالت له وهي توصيه خيراً بوالده العربي إن رضا الله لا يكتمل أبداً إلا برضا الوالدين. ظل سليمان يسمعها وعيناه جاحظتان كأنه يسمع صوتاً داخل رأسه له أصداء رهيبة. حين انتهت انخرط في موجة من الارتعاش وعيناه مفتوحتان عن آخرهما تحدقان في الفراغ دقائق لا ترمشان وهي تناديه بقلق فلا يسمعها حتى انتفض كالمجنون وخرج صافقاً باب الكوخ خلفه واختفى عن الأنظار نهائياً أسابيع لم يظهر له أثر لا أحد يعرف أين ذهب. ظلت حادة طريحة الفراش تهلوس باسمه سائلة عنه كل حين وقد زاد بصرها ضعفاً وجسمها نحولاً لكنها لم تمت رغم كل ذلك.

في تلك الليلة وقد شرب سليمان قنينتي روج بمفرده قصد عش العربي الفرناطشي. شبّ الحريق في الفرن وفي الأكواخ المجاورة في نفس الليلة. حين جاءت الشرطة في الصباح كان المقدم قاسم ابن العروسي خليفته ووارث سره هو من أوصل التحقيق إلى أن سليمان

هو المسؤول عن كل تلك المحرقة. كان قاسم يريد الزواج من ميلودة لكنها تمنعت، وحين تقرب من سليمان وفاتحه في الموضوع صده سليمان بإيعاز من أمه خوفاً على ملكية الكوخ. كان قاسم طامعاً في الكوخ ما يزال، فجمع تحرياته الأكيدة عن سليمان من داخل الحي ومن حي دوار الحاجة أفادته في ربط الخيوط بسرعة.

بعد أن نغادر رشيد وأنا مكمن سليمان الهارب داخل أمعاء الولجة كنا نعرّج على قطعة الحشيش لندخنها عند الضفة قبل أن نغطس في الماء كبط المستنقعات في اتجاه الضفة الأخرى.

طورنا أسلحتنا من سكاكين وسيوف خشبية إلى شفرات مصنوعة من القصدير وسكاكين طبخ بلا قبضات ومفكات براغٍ صدئة وملاعق مبرودة وشفرات حلاقة تخفى خلف الأسنان داخل الفم. كانت أمي تقف أمام باب براكتنا كل مساء قلقة كدجاجة توشك أن تبيض وهي تنادي بأحر صوتها:

– مراد... مراد... تعال لتدخل يا ولد الحرام... مراد... مرااااد... واااااا مراد... أينك يا مَسْخُوطَ الوالدين؟...

حين لا أجيبها ينادي عليها أبي من الداخل:

– ادخلي وأغلقي عليّ ذلك الباب واتركي ذلك الجرذ يبيت في الزنقة مع المشمكرين.

لم يكن أبي يصلي في البيت قطّ، كان يصلي فقط أحياناً في الجامع على فترات جد متباعدة، وقد علمت لاحقاً أنه كان يصلي دون وضوء. كان الجميع يعرف أنه سكير، لكنه رغم ذلك لم يكن يسكر إلا سرًّا عن الناس بقناني الفراكة في البيت، أما الكيف فكان

يدخنه علانية كالسجائر حتى أمام الضيوف. أحضر ذات مرة امرأة من سوق الخميس بسلا حين كان يشتغل في بَاطْوَارَات الأسواق الأسبوعية سلاّخ خراف وماعز وأبقار. قال لأمي ولنا إنها بنت خاله وإنها أيضاً أخته من الرضاعة وإنها كذا وكذا. لم تكن تشبهه أبداً، ولم تبد في سنه ليكونا قد رضعا حقاً من ثدي واحد، بل كان أكبر منها بعشرين سنة على الأقل، لكن وجهها كان شاحباً ونظراتها ساهمة فبدت كذبته محيّرة إلى حد معقول. قال إن السبل قد تقطعت بها بعد أن طَجّ عنها زوجها هارباً من بيت الزوجية. سمعت أمي تقول له في المطبخ بصوت مهموس حتى لا تسمعها أخته تلك التي كانت ما زالت مرتدية جلاّبتها جالسة على حافة اللحاف حانية رأسها وقرب قدمها رزمة ثيابها، قالت له بجدية حارقة وصراخ بالهمس وهي تلوح بيديها المحنّاتين قرب وجهه:

– أين تريدها أن تعيش هنا؟ ألا ترى أن الكوخ لا يكفينا حتى نحن؟ وماذا ستصرف عليها إذا كنا نحن أنفسنا نموت جوعا؟...

أجابها بهمس على شكل صراخ:

– لا تفضحينا يا مينَةْ، هل تريدين أن أترك أختي عرضة لذئاب سلا وهي حامل؟ ماذا سيقول عني الناس؟

قاطعته وقد جحظت عيناها:

– حامل؟

أجابها بثقة وهو يمد يده إلى غرّاف الطين فوق الخابية ليشرب:

– نعم حامل.

لطمت خديها وأخذت تندبهما كأنها سمعت خبر موت أحد

أقاربها وهي تولول بالهمس وأبي يشرب على مهله من الغرّاف المنكّه بالقطران:

- يا ويلي وحدي... يا ويلي وحدي... هذا الرجل سيطرطق لي المرّارة... آ ويلي وحدي على سعدي الأكحل...

ردّ عليها وهو يعيد الغرّاف إلى مكانه فوق غطاء الخابية قبْل أن ينصرف:

- ما به سعدك الأكحل؟ احمدي الله أن لك زوجاً وكوخاً يحميك من حر الصيف ومطر الشتاء فالناس لم يجدوا ما تنعمين به أنت ورغم ذلك يحمدون الله...

ظللت متكئاً على المفرق الذي يفصل باحة ما كنا نسميه مطبخاً عن بهو الكوخ الذي كنا نسميه النّبحْ حيث كانت تجلس حفيظة. مرة أتأملها، ومرة أتأمل أمي تندب حظها بصمت عاجزة عن الخروج إلى ذلك النّبْحِ لتواجه حفيظة.

كان لزاماً عليّ أن أنادي تلك المرأة عمتي حفيظة، وبعد ذلك عرفنا أنها زوجة أبي الثالثة، وأن الذي كان في بطنها كان أخي.

لم يكن أبي سيئاً في شبابه كما سمعت جدتي ذات يوم في بيتها تحكي لعمتي نزهة ولامرأة أخرى لم أعرفها ولعمي الأصغر حميد الذي كان منشغلاً بالبحث في الترانزستور عن إذاعة دون جدوى. كنت مضطجعاً على الْهَيْدُورَةِ أنظر إلى قصدير جدار الكوخ، أعُدّ بعينيّ بصعوبة بصاق الذباب على ضوء اللمبة البعيدة وأعيد عدّه. ظنوا أني ما زلت طفلاً لن أفقه نميمتهم، كما ظنوا أيضاً أني نمت. قالت جدتي:

- لقد نام ذلك القرد. مثله مثل أمه من صنف القردة.

أجابها عمي:

- بل هذا القرد سيتجاوز أمه في خصال القردة.

أضافت جدتي:

- لا يمكن أبداً أن أقبل به حفيداً، فهو لا يشبه ابني في شيء. الكل يعرف من تكون أمه.

أجابتها عمتي:

- حتى ابنك لا يعوّل عليه يا أمي، فذلك هو جزاء من ينفر من الحلال ويُقبل فاتحاً فمه كالضبع على الحرام، وها هو من جديد يفعلها ويعاشر امرأة ثالثة.

قاطعتها جدتي:

- ومن ضبّعه سواها؟ الله وحده يعلم أي قَرِينة كَحْلَة أكّلته طيلة هذه السنوات، فابني هذا الذي تتحدثين عنه اليوم ليس هو ابني الذي أنجبته وأرضعته من أثدائي هذه وربيته حتى صار رجلاً من خيرة الرجال. لقد لسعته بنت الحرام كالعقرب بسمّها.

أجابتها عمتي:

- حتى لو كانت كما تقولين سحّارة بنت سحّارة، فالحق يجب أن يقال يا أمي لنا وعلينا؛ ابنك مُضَبَّعٌ منذ اليوم الأول، وزَهْوَانِيّ عينه خضراء زائغة حتى قبل أن يعرف مينة.

تدخلت المرأة التي لم أعرف من هي:

- لا يا نزهة لا... لا تقولي هذا الكلام عن أخيك، فهو رجل، والرجل يظل رجلاً لا يعيبه شيء. ليس الرجل كالمرأة على كل حال.

لا يا نزهة لا... لا تقولي ذلك عن المكّي.

أجابتها عمتي:

– كيف ذلك يا خالتي البتول؟ لو كان بعقله كما تقولون هل كان تزوج بأمّ هذا الْحْرَامِي؟ هل كان دخل عليها وفي بطنها طفل ليس من صلبه؟

قاطعتها جدتي:

– قلت لك لقد سحرت له، إنه ابني وأنا أعرفه جيداً وأعرف ما في أمعائه كما أعرف ما في أمعائك، اسكتي ودعينا نتحدث أنا وخالتك البتول.

تدخلت البتول التي لم أستطع أبداً أن أعرف من هي وكان صوتها أجش كصوت الشِّيخَاتْ بعد عرس ولها سنّ فضية منخورة عند جذرها:

– نحن لا نتجنّى عليها يا ابنتي، لقد كنت أصغر من أن تعرفي الحقيقة، لقد عرفها في كوخ قوادة ماتت الله يرحمها إن كانت فعلت شيئاً تستحق عليه الرحمة، حاشى عمك حميد وحاشى جاه النبي.

كحّ عمي.

واصلت البتول كلامها:

– الناس كلهم يعرفون ذلك يا نزهة، هذا الطفل ليس من صلب المكي، وهذا لم يعد يعيب مينة وحدها الآن، بل يعيبنا جميعاً.

تدخلت نزهة متحمسة:

– ولماذا لم يطلقها إذن؟ لماذا يربي طفلاً لم ينجبه؟

ردت عليها جدتي وكان صوتها شبيهاً بصوت متسوّلات الخبز

اليابس عبر الأزقة المقفرة:

– اسكتي يا هذه النار الحمراء، قلت لك لقد أكّلته ما أكّلته. اسكتي أو انهضي من أمامي.

تدخلت البتول مقهقهة قهقهة مصطنعة:

– لاَوَاهْ أمّي نْوَّارَاةْ لاواه، اتركيها تقول ما تريد، ستفهم كلامنا يوماً ما وتقول بينها وبين نفسها: لقد قالتها أمي وقالتها خالتي البتول ولم أصدقهما.

نطقت جدتي بنبرة متأسية كما لو أنها تحدث نفسها فقط:

– أنت نفسك لا تعرفين شيئاً يا البتول، فالسحر وصل دون شك حتى بيتي، فهذه الطائشة تزور بيت الساقطة خلف ظهري وتأكل من طعامها.

صرخت عمتي:

– ولماذا لا أزورها؟ أليست زوجة أخي المكي؟ ثم إني لا أزورها هي، بل أزور أخي فقط. هل ستمنعينني من زيارة أخي وتربطينني هنا إلى جانبك ليل نهار حتى أبور؟

تنهدت جدتي وأجابتها ساخرة دون اهتمام كبير بما قالت هذه المرة:

– كلا، لن أمنعك من زيارتها، زوريها يا لاَلّةْ زوريها، واسكني هناك في كوخها إن أردت ذلك، فلا أظن أن المكي وحده من تضبّع، بل أنت أيضاً ذقت من مخ الضبع، كلا... لم تذوقي فقط... بل شبعت أيضاً.

قهقهت البتول من جديد:

- كلا كلا يا مّي نوارة، ليس إلى هذا الحد، لا تبالغي يا مّي نوارة.

وجهت جدتي الكلام من جديد إلى عمتي، ثم إلى البتول:

- قومي هاتي الغَلاّيْ من على الموقد فسنبلة بخاره قد وصلت إلى عنان السماء، ألا ترين ذلك؟ الكلام أخذنا يا البتول حتى نسينا الشاي، لا تؤاخذينا.

قالت البتول:

- الحديث معك يا مّي نوارة أهم من الشاي ومن أي شيء آخر، فأنت الخير والبركة التي نتبرك بها.

ثم وجهت الكلام لعمي حميد:

- وأنت يا حميد، متى نفرح بك ونرقص وترقص مّي نوارة في عرسك؟ ألم يحن الوقت بعد؟

أجابها عمي وكان قد أمسك بالكاد إشارة إذاعة يظهر صوتها ويختفي ليعوضه تشويش قوي:

- إذا كان الزواج كهذا الذي كنتم تتحدثون عنه يا البتول فـ أُوهُو... لا يصلح لي ولا أصلح له، من يدري في أيّ مطمورة فارغة أسقط أنا أيضاً؟ فقد يتزوج المرء أفعى على هذا الحساب أفضل له من الزواج بامرأة.

ونهض منصرفاً ليبحث كعادته عن مكان أنسب لمسك إشارة الترانزستور وهو يتشتش في يده والبتول تقهقه وتقول له:

- لاواه يا حميد لاواه... ما زال الخير في الدنيا، ومازالت البيوت مليئة ببنات الناس.

كانت عمتي نزهة قد أفرغت الماء من الغلاي في الْبَرّادْ فوق

الشاي والسكر وأضافت إليه جدتي النعناع وأخذته عمتي إلى الموقد لِيَتَشَحّرْ حين انتشرت رائحة النعناع قوية مضاعفة داخل الكوخ ووصلت إلى أنفي فأحسستها كرائحة السم الذي لم أكن أعرف رائحته. كانوا يتحدثون عني وعن أمي، وكلامهم كان كلام سمر هادئ وحميم يعني بوضوح أني ابن الزنقة، وأن أبي ليس أبي، وأني الوحيد الذي لم يكن يعلم. ظللت جامداً طيلة حديثهم كحشرة محنطة، لم أتقلب، ولم أتحرك، ولم أكح، ولم أحكّ، شعرت طيلة ذلك بتعرّق خفيف ساخن ثم بارد يغمر جبيني وعنقي وأنفي وباقي جسدي وبرغبة قاهرة في الحكّ والقيء والصراخ، لكني قاومت ذلك.

كانت عمتي نزهة قد زارتنا عصر ذلك اليوم، وحين أرادت العودة كان المساء قد أوشك أن ينزل فقد أخذها الحديث طويلاً رفقة أمي حتى نسيت نفسها. قالت لي وهي ترتدي جلبابها بسرعة:

- مراد، ستذهب معي وفي الغد عد إن أردت، لن أستطيع العودة وحدي لقد تأخر الوقت وسيظنون أني أمشي على حلّ شعري، ومنها ترى جدتك فقد اشتاقت إليك.

قبل أن أقول شيئاً أمرتني أمي:

- أوصل عمتك.

ظللت جامداً فوق الهيدورة أسمع صوت شربهم للشاي الساخن من الكؤوس، وصوت مضغ، ورائحة مْسْمّنْ، وصمتاً عن الكلام أثناء الأكل، سوى جدتي تعزم على البتول كل مرة أن تأكل، والبتول تؤكد لها أنها تأكل وأنها ليست ضيفة، وجدتي تقسم عليها أن

تأكل أكثر فهي لا تأكل شيئاً يذكر. بعد ذلك خاضوا باسترخاء في أحاديث أخرى حتى أخذوا بالتثاؤب فودّعتهم البتول وهم يصرّون عليها أن تبيت حتى الصباح وهي تصرّ أن تذهب فبيتها قريب كما قالت وأطفالها سيحتاجونها، فنادت جدتي على عمي حميد ليوصلها حتى باب بيتها. لم تمرّ دقائق حتى فرغ المكان وانطفأت اللمبة ولم يبق هناك حس سوى البقّ وسوى صوت نباح كلاب متقطع وحزين يأتي من بعيد. لم أتعشّ تلك الليلة، بل بتّ جائعاً تصفر أمعائي صفيراً متواتراً أسمعه. لم يتذكروا قطّ أني مستلقٍ هناك على الهيدورة بلا عشاء، حتى عمتي نزهة لم تتذكر. كان كل ذلك لا يعني لي شيئاً في حقيقة الأمر فقد اعتدت عليه حتى في بيتنا، بقدر ما كان مميتاً لي أني عرفت ليلتها، لأول مرة في حياتي، أن أمي قحبة.

بمجرد ما فتحت عيني في الغد، كان الصباح لا يزال باكرًا نديًا، ونسائم نقية تعم الأزقة الفارغة بين الأكواخ ممتزجةً بحدة ببعض الروائح العطنة، وهناك زقزقة عصافير دوريّ ما زالت مختبئة داخل شقوقها وأعشاشها. كنت قد غادرت كوخهم قبل أن يستيقظوا، عائداً إلى كوخنا، مصدوماً مذهولاً جائعاً جاحظ العينين كالمسرنم في نومه. كانت تلك آخر مرة أزور فيها كوخهم، وأيضاً بعدها لم أشرب أبداً شاياً بالنعناع، فقد أصبحت رائحة النعناع تعني لي شيئاً واحداً هو أن أمي هي أكبر قحبة في العالم.

فهمت لماذا كان الصبية يسبونني باستمرار بابن القحبة، وقد كنت أرد عليهم بالمثل، سوى أني أعرف الآن أن أمي قحبة فعلاً، وأني ابن الزنقة وأكواخِ القوادات، بلا أب وبلا عائلة، بينما لاشيء يؤكد لي أن

أمهاتهم أيضاً كانوا قحاباً، أو أن آباءهم الذين يتفاخرون بهم ليسوا هم آباءهم الحقيقيين.

كان عمري لا يتجاوز سبع سنوات، وقد قررت حينها أن أذبح أمي وأبي. هاجمت أمي بسكين.

صرخَت:

- آ ويلي وحدي عْلَى المسخوط... آآ ويلي وحدي... بَاغِي تقتلني يا المسخوط؟ يا الله... ماذا تنتظر؟

أجبتها والسكين في يدي:

- سأقتلك... أنت قحبة... لقد عرفت كل شيء من جدتي وعمتي ومن البتول... أنت لست أمي... سأقتلك أنت وزوجك الزَّامْلْ... من هو أبي؟

نزعت منديل رأسها وضربت به الأرض وصرخت في وجهي:

- البتول من يا ولد الحرام؟

أجبتها:

- أقول لك أنت قحبة... من هو أبي؟... وتسألينني من هي البتول؟

أجابتني وقد تغيرت نبرة صوتها إلى الهدوء والحكمة:

- إلعن الشيطان أ وليدي... من لخبط لك رأسك بهذا الكلام؟ دَعَوْتُهُمْ لله في يوم الجمعة المباركة هذا... أنت لا تعرف شيئاً يا مراد... سأحكي لك كل شيء... فجدتك أفعى... اهدأ وتعال إلى هنا لأشرح لك...

قاطعتها مطوحاً بالسكين في اتجاه وجهها يكاد يلمسه:

- قلت لك من هو أبي الحقيقي؟

صرخت وهي تندب خدها غارسة أظافرها فيه:

- آويلي وحدي... تريد أن تقتلني؟... الذي تركه أبوك تريد أن تكمّله لي أنت؟

وظلت تندب وتصرخ:

- آويلي وحدي... آويلي وحدي...

والسكين في يدي، ويدي ترتعش، وهناك بكاء مختلط بغلّ شديد حبيس داخل أعماقي وأنا أنظر إليها بجفاف دون أن أرمش، حتى سقطتْ مغشياً عليها فاقدة الوعي.

تركتها جثة هامدة وخرجت راكضاً بعد أن صفقت باب الكوخ بقوة. قصدت النهر، كان هناك بعض الصبية عند الضفة يلعبون بكرة مصنوعة من أسمال وخيوط، خفت أن أقترب منهم، أحسست أنهم بمجرد ما يرونني سينادونني بسخرية:

- جئت يا ابن القحبة؟

- تعال لتلعب معنا يا ابن مينة الواسعة.

- هل وجدت والدك يا ابن الهاربة أم ليس بعد؟

ثم يعقبون ذلك بقهقهات جماعية متداخلة هازئة.

رغم أنهم لم يخاطبوني هكذا في العادة قطّ، إلا أني كنت أحس ذلك اليوم أن الجميع أصبح يعرف أن أمي قحبة، والجميع سيسبني بذلك، وأني أصبحت عارياً أمام الجميع عاجزاً عن إخفاء عورتي حتى وأنا أرتدي ثيابي. ابتعدت عنهم حتى لم يعد يصل إلى سمعي صراخهم ومرحهم الذي أحسسته مؤلماً داخل أعماقي، ابتعدت

أكثر كمجذوم. جلست على قارب مكسور مغروس في التراب، قبالة النهر، والولجة تبدو من خلفه لا حد لها في الأفق المزوق بسحاب أبيض صغير شبيه بالقبور، أحمل أحجاراً وأقذفها في الماء. تذكرت أني تركت أمي مغمى عليها في البيت وحدها دون أن أفرغ على وجهها بعض الماء لتعود إلى وعيها. انتابني شعور مريع بأنها ستموت، وسأكون أنا من قتلها. لا محالة ستموت، فهي لا تستيقظ وحدها عادة حين يغمى عليها. عاطفة ما غريبة وقوية ومخيفة ومفاجئة حثتني أن أركض بسرعة في اتجاه البيت لأوقظها. قاومت ذلك وأنا أنظر بغيظ إلى النهر. لن أعود إلى البيت ولن أنقذها، عليها أن تموت فذلك جزاؤها. قمت وتقدمت في اتجاه الماء الموحل شديد الملوحة لأغطس فيه بثيابي.

بعد ذلك بأسابيع استطاعت أمي أن تقنعني أنها ليست قحبة، وأن المكي هو أبي الحقيقي. لقد كنت أشبهه كما ظلت تقول لي، وقد تأكدت من ذلك بنفسي، فكلانا يملك أنفا معقوفاً إلى أسفل بشكل واضح. قالت لي أيضاً إن جدتي لم توافق على زواجها بأبي، وإن أبي تزوجها رغماً عن جدتي، فأقسمت أن تطلقه منها، وإنها هي من تشجعه على الزواج عليها كلما زارها وتحكي له أشياء تختلقها ليكرهها ويهجرها، وترسل عمتي نزهة بالسحر لتذرذره في بيتنا. لكن أبي كما قالت طيب، ويحبها، فهو مَبْلِيٌّ ككل الرجال، ولا أحد كاملاً في هذه الحياة كي يكون أفضل منه رغم علاّته، بل لكل إنسان نقائصه الكثيرة التي مهما كانت خفية تظهر لا محالة بعد العشرة الطويلة. أما الزواج فالشّرع قد أعطاه الحق في أربع نساء، وإنها لن

تقبل على نفسها يوماً أن تعصى الله حتى تحتجّ على شرعه، فحتى النبي نفسه الذي نرجو جميعاً شفاعته كانت له زوجات كثيرات تزوجهن على أمّنا عائشة. حكت لي أن أبي كان قد زار بيتهم في الْبِّيَاتْ بحي يعقوب المنصور، حيث كانت تسكن أمي منذ طفولتها رفقة عمتها وزوج عمتها بعد وفاة أمها وأبيها. كان ذلك صبيحة عيد أضحى، كان يشتغل سلاّخًا في المنازل كل عيد، يطوف على بيوت زبائنه أينما كانوا، رآها حينها وقد كان ملطخاً بالكامل بالدم، وقد أعجبها وأعجبته من أول نظرة، وضحكت بخجل حين قالتها مغطية فمها بيدها بحركة تدلّ على الخجل الشديد. ثم واصلت أنه أحضر أمه نوارة بعد ذلك وجاء لخطبتها، لكن نوارة أفسدت تلك الخطبة حين عرفت أنها يتيمة وأنها فقيرة لا تملك مالاً ولا أهلاً سوى عمتها وزوج عمتها وأخيها الوحيد الأصغر مجيد الذي أخذته امرأة أخرى عاقر لتربيته كابن لها بالدار البيضاء مذ كان يتعلم النطق، فقد تيتّم قبل أن يرضع كباقي الأطفال سنتين كاملتين. كانت نوارة تريد لابنها أن يصاهر عائلة من الأعيان، رغم أنه فقير ولا تجارة له ولا عقارات ولا أطيان سوى حرفته تلك، فقد كانت وما زالت طماعة لن يملأ عينيها سوى التراب ولن يكفيها سوى القبر. لكن المكي أبي كان قد عشقها حقًّا كما قالت، بل أصبح متيّماً بها، فعاد وحده لخطبتها من عمتها وزوج عمتها والزواج بها سرًّا، وذلك ما كان، فحين يعود بها إلى الحي حبلى لن تجد نوارة ما تقوله فتستسلم للأمر الواقع. كان يزورها في البّيَات في بيت عمتها مرة واحدة فقط في الأسبوع، يوم الثلاثاء بالضبط على ما تذكُر، يقضي معها ليلته ويعود، وهي على

ذمته، على سنة الله ورسوله، إلى أن ظهرت بطنها قليلاً وهي حامل بي عن أربعة أشهر أو خمسة، فجاء بها إلى الحيّ وفي يدها رزمة ثيابها، فكان ما كان أن اشتعلت النار في نفس نوارة، فأشاعت في كل مكان أن المكي أحضر لهم هاربةً لا يعرفون لها أصلاً ولا فصلاً، أحضرها من أكواخ اللائي لا يسمّين وهي حبلى من مجهول. ثم أخبرتني أنها لا تحبني أنا رغم أني حفيدها لأنها ترى في دمائي دماء أمي تجري، ولأنها لم تبلع قطّ أنها أخذت ابنها منها زوجاً رغماً عنها، وأنها رغم خرفها ما زالت لا تخاف الله، ثم تساءلت باستغراب:

- لماذا تؤلف عني أنا الأقاويل وتنسى ابنتها رْحِيمُو التي طَجَّتْ من الحي إلى حي آخر أو مدينة أخرى فالله وحده يعلم أين طجت بالضبط، ولم تظهر لها ظاهرة حتى الآن منذ خمس سنوات؟ فلتقل لك أين ذهبت رحيمو؟ ولماذا اختفت؟ قبل أن تذكرني أنا على لسانها السام بسوء. لا أفهم كيف تنسى ابنتها الهاربة وكلام الناس عنها وتلطخ بشرّها المُقَطّر سمعة بنات الناس الآخرين؟

كان كلام أمي مقنعاً حقاً، فهدأ قلبي، ونسيت ما قالته جدتي وعمتي نزهة والبتول، ونسيت كوخهم، وأصبحت كل مرة ألمس أنفي وأحدق فيه طويلاً في المرآة لأتأكد، ثم أقارنه بأنف أبي فأتأكد أكثر أنه أبي حقًّا، وعرفت بعد ذلك أن أغلب أمهات الصِّبْية جئن إلى الحي هاربات، فأغلبهم لا يعرفون آباءهم ولا يعرفون أيّ شيء، بل يعيشون فقط مع آباء يعتقدون أنهم آباؤهم، بل ثلثهم أو أكثر كانوا يعيشون رفقة أمهاتهم فقط، دون آباء حقيقيين، ولا آباء وهميين. بل وكانت أمهات بعضهم ما زلن يسكن ويشتغلن عند قوادات، فكان

الصبي منهم يخرج من كوخ القوادة مباشرة ليلعب معنا، وليسب الصبية الآخرين بأبناء القحاب قبل أن يسبوه بها، أو يكون هو نفسه ابن قوادة الكوخ نفسها. بل وأكثر من ذلك كان عدد لا بأس به من الصبية لا يعرفون حتى أمهاتهم الحقيقيات وليس فقط آباءهم الحقيقيين، فقد كانت تربيهم قحاب بعد موت صديقاتهن أثناء ولادتهم أو بعدها أو بعد أن يتركنهم مقمّطين داخل أكواخ القوادات ويهربن إلى أحياء أخرى، أو كانت تربيهم متسولات لتتسوّل بهم على أبواب الجوامع.

أصبحت متأكداً أن أمي هي أمي وأن أبي هو أبي فعادت حياتي طبيعية كما كانت، وأصبح حبي لأمي وتعلقي بها أكبر مما كان، دون أن أهتم كثيراً لأبي الذي كان بدوره لا يهتم كثيراً لأمرنا، فقد أخذت فترات غيابه تطول أكثر فأكثر، إذ بعد شهر على إحضاره زوجته الجديدة الثالثة حفيظة لتشاركنا البيت سرعان ما غيّر رأيه وأعادها إلى سلا ليسكنا معاً هناك في حي صفيحي اسمه سَهْبْ الْقَايْدْ، ولتصبح إقامته هناك رسمية أكثر من إقامته معنا، ولتلد أخي جلال الذي لم أره قطّ والذي مات بعد سنوات قليلة بِبُوحَمْرُونْ، بينما طلق زوجته الثانية التي لم أرها قطّ ولا أعرف حتى اسمها، لكنه ظلّ مرتبطاً بجدتي، فكان ملزماً بزيارتها مرة واحدة على الأقل في الشهر وفي يده قفة، وكانت تلك فرصة سانحة له لزيارتنا نحن أيضاً في الغد مساء، بتلك القفة خاوية في يده بعد أن أفرغها عند جدتي. يبيت في كوخنا يضاجع أمي ويرحل قبل الفجر كي يدرك السوق، قاطعاً كل تلك المسافة بين حينا وبين سلا على قدميه، في وقت

قياسي كجنديّ، عابراً قنطرة سلا في الظلام، إلى أن أدركوه ذات صباح بسكين، ظنوا أن تلك القفة مليئة بالمال أو بشيء آخر يستحق، لكنهم لم يجدوا فيها سوى سكاكين السلخ والسبسي وكيس صغير مليء بالكيف.

وجده بعض المارة مسجى على القنطرة وسط بركة من دمائه، تحيط به سكاكينه وسبسيه وقد غطوا وجهه بتلك القفة.

لم نعرف ذلك إلا بعد خمسة شهور أو أكثر، حين كان قبره في سلا قد جف. بكت أمي وحدها في الكوخ بمرارة وشقت ملابسها وندبت وجهها، فقد كانت دموعها دائماً خلف أجفانها مباشرة، وكانت تنتظر دائماً شيئاً يُبكيها بحرقة. زاد تعلقها بي وبغياب خالي مجيد وبكرتونة كتبه، فقد كانت تسحب تلك الكرتونة تلك الأيام كل مساء تقريباً إلى النبح لتمسح عنها الغبار من جديد بمنديلها على ضوء شمعة وتحدثني عنه وعن زياراته الدائمة لها في البّيتات في بيت عمتها كلما سنحت له الفرصة حين كان طالباً وأنه كان يحضر لها بعض الهدايا وأيضاً ينفحها بعض المال مما يوفره من منحته الجامعية الشحيحة ومن بعض العمل الذي كان يعمله طيلة العطل، ثم تنسى أني أجلس قربها وتنسى أن خالي مات، فقد كانت تأمل دائماً أنه ما زال حيًّا، وأنه سيعود يوماً، فتبدأ بمحادثته مباشرة وتوجيه الكلام إليه والشكوى ناظرة إلى عينيه في الصورة أو إلى الكتب في الكرتونة.

زرت قبر أبي أكثر من مرة في سلا رفقة أمي التي ظلت وفية لذكراه، تشذب قبره الذي لم يكن مبنيًّا، ولا تميزه سوى شاهدته التي كتب عليها اسمه: المكي السلاّخ، وتاريخ وفاته. تسقي نباتات

القبر وتزيح عنه الغبار والأزبال والنباتات الجافة. تجلس قربه وتكلمه كأنه يسمعها وتدعو له بالرحمة والغفران محدقة في الشاهدة، ثم تبدأ بلومه على أشياء كثيرة قبل أن تنخرط في بكاء مرير، بينما أراقب أنا زوار المقبرة الآخرين، والمتسولين الأكثر بؤساً من الموتى، وأتهجى شواهد القبور وأسماء الموتى بصوت مسموع.

تشتري لي حمّص كَمُونْ كل مرة من بَابْ الْخَمِيسْ، أمام صف طويل من العربات. لا نعود عبر قنطرة سلا، بل عبر الْفْلاَيْكْ تفادياً لأن نمر فوق المكان الذي وجدوا أبي مسجّى فوقه. ننزل من الفلوكة محاذرة أمي أن تقع في النهر، نعبر الشارع في اتجاه سوق الرحبة، نصعد ونعرّج على الضريح، ندخل لنستريح قليلاً في ساحته فوق كراسيه الحجرية. تثرثر أمي مع بعض النسوة المجلببات المنقبات اليائسات مثلها، يتبادلن الشكوى والتنهدات، بينما أتأمل صومعة حسان التي يقولون إن زلزالاً هو الذي طيّر نصفها.

نواصل طريقنا عبر حسّان حتى شالة التي أتأمل أبراجها العالية وبابها العملاق وأعشاش لقالقها التي تطقطق أحياناً بمناقيرها كمقصات الحلاقين، ننزل عبر السّانية ثم نصعد حتى نبلغ مدخل الأكواخ.

كانت تلك هي فستحي الوحيدة خارج الحي، فقد أصبحت حقاً مع الوقت زيارة قبر أبي لا تعني لي سوى الفسحة البهيجة واللقالق وحمّص كمون اللذيذ.

قبل أن تموت أمي كنت قد أصبحت شاباً، وأصبحت سكيني لا تفارق جيبي. كنت أعتني بها كما يجب، أقطع الطريق وأعتني

بها، أسرق وأشتري لها فواكه ولحماً وثياباً، أعطيها مالاً بين فينة وأخرى أكثر مما تحتاج محاولاً تعويضها قليلاً عن أيام الجوع والحرمان والتقتير، لكنها لم تكن سعيدة، فقد كانت تعرف أني تركت المدرسة وأصبحت شخصاً آخر جانَب الطريق القويم. كانت تحدس أني سأنتهي نهاية خالي وربما أسوأ. حاولت مراراً أن تثنيني عما أفعل، وعما أخطط له، لكن الوقت كان قد فات، فبذرة الشوك كانت قد أينعت وتفتحت أشواكاً حادة وكان ذلك أكبر من إرادتي أو من عدم إرادتي. كانت تقول لي وهي منهكة بشدة وشاحبة، أو طريحة الفراش:

– لم يتبق لي إلا أنت يا مراد، ابتعد عن طريق السوء، لا أريد منك مالاً ولا أحتاج شيئاً، أحتاجك أنت فقط. لو ذهبت يا مراد، لو سجنوك أو قتلوك، فستكون تلك هي نهايتي.

كان خوفها من نهايتي وحدسها القوي لما سيحدث أقوى عليها من تلك النهاية. فعوض أن تقتلها نهايتي قتلها خوفها من تلك النهاية وإحساسها الوشيك بها. كنت قد تغيرت كثيراً، ونظراتي أصبحت تبرق أكثر وأنا أفكر وأخطط وأنظر من فوق الهضبة إلى ما خلف الحي، حيث الجنة والحياة والمجد. لم يعد الحي ولا سكانه ولا قصصه البئيسة هذه تعني لي أيّ شيء. أمي هي الوحيدة التي كانت ما زالت تربطني بذلك الحي وبتلك الحياة، وبكل ذلك القيء.

قبل أن تموت كنت قد عرفت من عبد الرحمن أن المكي حقا ليس أبي، وأنها كانت حقاً قحبة، وأن كل تلك الحكاية التي حكتها لي عن زواجها بالمكي وخطبته لها من عمتها وزوج عمتها حكاية

وهمية اختلقتها من دماغها فقط لتهدئ من روعي.

كنا نسكر أنا وعبد الرحمن ونتحشش ذلك المساء حين انخرط كامرأة في نوبة بكاء. كانت أول مرة أرى فيها دموعه. حاولت أن أفهم ما به لكنه ظل يبكي دقائق وينشج قبل أن ينظر إليّ بعينين حمراوين ويتكلم بصوت مكسور متقطع:

– لقد عانت أمي وأمك... الكثير... يا مراد... ومقدر لنا... نحن أيضاً... أنت وأنا... أن نعاني أكثر.

لم أفهم في البداية ماذا كان يقصد بالضبط فقد سكر أكثر من اللازم. كنا نفرغ الروج من القنينة في الكأسين ونشرب لكنه أخذ يسحب القنينة كل دقيقة ويعب من فمها جرعة طويلة كعطشان حتى أنهاها:

– أمي قحبة وأمك قحبة ولا سبيل إلى مسح ذلك حتى بشرب نهر كامل من الروج.

أمسكت القنينة من يده، أمسكتها من عنقها وخبطتها أرضاً، ظل نصفها فقط في يدي. وقفت وسحبته من كتفه بقوة وجنون حتى استقام. لكزت بطنه بنصف القنينة وصرخت فيه مقرباً وجهي من وجهه يكاد يلمسه:

– ماذا تقول يا ابن سليمة القحبة، تكلم فقط عن أمك واترك أمي جانباً، تريد أن تحس بهذه القنينة داخل أمعائك؟

بدا لي كأنه لم يعد سكراناً، كما أني أحسست أيضاً أن سكرتي قد طارت. حنى رأسه وقال:

– اضرب يا مراد إن أردت، مزق بطني فلن أحرّك ساكناً ولن أرفع

يدي في وجهك، تعرف أني أعتبرك أكثر من أخ لي طيلة حياتي.

صرخت فيه من جديد:

– كيف تذكر أمي على لسانك أيها الزامل المَحْوِيّ؟ هل تعتقد أن كل الأمهات قحاب فقط لأن أمك قحبة؟

لم يساير صراخي وشتائمي بل أجابني بهدوء وبرود وهو يحاول عناقي:

– أعتذر منك يا مراد... كنت أعتقد أنك تعرف الحقيقة... أقسم لك كنت أظن...

دفعته قبل أن يكمل حتى ارتطم بحائط غرفة السطح:

– عن أيّ حقيقة تتحدث أيها الزامل القوّاد؟ هل نسيت أن السيكليس كان ينيكك أنت وأمك؟ إن كنت قد نسيت سأذكرك هذه الليلة.

دخل رشيد مهرولاً وقد سمع صراخنا، حاول أن يحول بيني وبينه وأن ينزع نصف القنينة من يدي. لم أتركها له بل دفعته وقذفتها بقوة فوق رأسه في اتجاه وجه عبد الرحمن الذي رفع يده فاصطدمت بها ثم بالحائط، ثم سحبت سكيني وقصدت عبد الرحمن. جال بيني وبينه رشيد فارداً يديه صارخاً:

– إن كنت ستضرب عبد الرحمن حقًّا اضربني أنا أولاً.

حدقت في عينيه فحدق في عيني بينما كانت يد عبد الرحمن تنزف:

– هيا، إن كان هذا سيسعدك ويريحك اضربني أنا عوض عبد الرحمن، وحنى رأسه.

- هيا... اضرب...

بقيت لحظة جامداً في مكاني وقبضة يدي قد تخشبت على قبضة السكين وعيناي لا ترمشان. قال رشيد وهو لا يزال حانياً رأسه:

- إلعن الشيطان يا مراد، فنحن أصدقاء وإخوة، هل نسيت ذلك؟ هل تريد أن تشمّت فينا الأنذال؟

واصلت النظر بعدوانية منقطعة النظير في عيني عبد الرحمن الذي كان ينزف ويبكي بصمت، قبل أن أعيد سكيني إلى مكانها، وأستدير، وأخرج من الغرفة وأنزل الأدراج منهاراً وفي نيتي قتل أحد الحثالة. قرّرت أن لا أعود إلى البيت تلك الليلة. تبعني رشيد. طلبت منه بحزم أن يعود لأني أريد أن أظل وحدي. قصدت ضفة النهر، لحسن الحظ لم يعترض أحد طريقي ولم أعترض طريق أحد. اكتشفت أن ثورتي المبالغ فيها تلك لم يكن سببها عبد الرحمن، بل أني في أعماقي كنت أعرف حقًّا أن المكي ليس أبي منذ تكلمت جدتي عن ذلك، فلم أكن أحس أي عاطفة جياشة تجاهه قبل ذلك ولا بعد ذلك ولا تجاه قبره. استطاعت أمي أن تقنع عقلي لكنها لم تستطع أن تقنع روحي. كنت أعرف الحقيقة وأحسها لكني لم أكن مستعداً قطّ لسماعها. عبد الرحمن كان يظن أني أعرف كل شيء، فمثل تلك الأشياء لا يمكن إخفاؤها وقتاً طويلاً. كان يسمع آخرين أثناء عراكات أو مشاحنات يسبونني بابن مينة القحبة كما كنت أسبهم بنفس الشتيمة ذاكراً أسماء أمهاتهم دون أن ينال مني ذلك شيئاً، لأني كنت أعرف أنهم لا يعرفون الحقيقة التي حكتها لي أمي، كما أن ذلك النوع من السباب كان شائعاً بين الجميع أكثر من إفشاء السلام. لكن، أن تأتي

من عبد الرحمن فذلك يعني أن الحقيقة هي ما يقوله الجميع وليس ما قالته أمي. كانت ضفة النهر باردة ولم أكن أرتدي ثياباً كافية، وبعد أن برد دمي وهدأت ثورتي بدأت أرتعش وأسناني أخذت تصطك، ليس بسبب البرد فقط، بل بسبب كل شيء، فقد كان كل شي ساعتها داخلي مثلجاً وبارداً.

عدت إلى البيت، وجدت أمي مستيقظة لا تزال، كأنّ قلبها أعلمها بشيء ما. سألتني:

– هل تعشيت؟

أجبتها:

– نعم.

كانت تستشعر شيئاً آخر أخبئه:

– متأكد؟

– نعم.

– ما هذه الرائحة التي تنبعث من فمك؟

– لا شيء.

تفاديت النظر إلى عينيها وأنا أسحبها لأقبلها في رأسها فعانقتني بقوة وسرعان ما أجهشت بالبكاء:

– لا تذهب في طريق السوء يا مراد، فأنت رأسمالي الوحيد في هذه الحياة يا بني. لو أصابك مكروه لن أعيش بعدك يوماً واحداً.

عانقتها وقلت لها وأنا أمسح دموعها:

– لن يصيبني أي مكروه، لا داعي لكل هذا القلق.

قاطعتني:

- أنا مريضة يا مراد، مريضة.

أجبتها:

- أعرف أنك مريضة، لذلك عليك أن تكوني الآن في فراشك وليس هنا.

لم أستطع النوم تلك الليلة. أصبحت أرى كل شيء بعيون جديدة عمياء، وأحسست أن قلبي جمد وتحجر أكثر، وأني أصبحت مستعداً لفعل أي شيء. ليس المكي وحده الذي لم يكن أبي، بل جدتي أيضاً، وعماتي وأعمامي، والجميع، وأنا لست أنا، وأبي الحقيقي لا أحد يعرفه، بل حتى أمي نفسها من المؤكد أنها لا تعرفه. أمي التي زاد شحوبها، قد عرفتُ حينها ما كان ينهكها أكثر من سهري المستمر خارج البيت، ما ينهكها طيلة تلك السنوات ويضنيها أكثر هو ذاك بالضبط خوفها أن أعرف الحقيقة ذات يوم.

لم أخرج من البيت في اليوم الموالي. بعد يومين اعتذرت من عبد الرحمن وعانقته. عانقني أيضاً بحرارة. طلبت منه أن يحكي لي كل شيء. حكى لي ما حكته له أمه سليمة عن أمي. قبل أن يكمل طلبت منه أن يتوقف، أحسست أني أعرف كل شيء وأن الأمر لم يعد يعنيني، وأن العالم فعلاً كله ابن قحبة، وأن كلمة قحبة لا تعني أي شيء، وأن الفلوس هي الشريفة العفيفة الوحيدة التي يثق في شرفها كلّ الرجال، لذلك علينا مطاردتها ومغازلتها أينما كانت، ثم قهقهت.

نظر إليّ باستغراب شديد وبلادة أشد:

- هل تعتقد فعلاً أن كون أمهاتنا قحاب، أمر مضحك؟ غريب أمرك يا رجل.

أجبته:

- وهل كنت تعتقد أن تلدك رابعة العدوية في هذا القيء العملاق الشبيه بمرحاض الماخور؟ تمنّ من الله فقط أن لا يكون العربي الفرناطشي قد كان يزور أكواخ القوادات، وإلا فلا شك أننا ثلاثتنا إخوة. ثم قهقهت، فقهقه أيضاً فاتحاً فمه حتى أقصاه.

كنا نتمشى ونتحدث، توقف ونظر إليّ بأسى كبير، فتوقفت أيضاً. أحسست بعمق أنه ينتمي أيضاً إلى عائلتي، أنه أخ وصديق وأكثر بحيث أن الكلمات لم تستطع أن تصف ذلك. مددت يدي وربّت على كتفه، ثم اقتربت منه لأعانقه فقد أحسست أني كنت أحبس الدموع بصعوبة خلف أجفاني، وأني محتاج للحظة أخوة وبكاء. عانقته بحرارة فعانقني، لكنه ما لبث أن دفعني فجأة بعيداً بكامل قوته حتى كدت أسقط وقال:

- الآن تعانقني أيها الزامل القواد، وقبل يومين شرخت يدي هذه وكنت ستثقب بطني بتلك القنينة اللعينة؟

ورفع يده مضمدةً إلى أعلى.

بدا منظره مضحكاً فقهقت.

انحنى ليحمل حجراً بيده الأخرى وهو يصرخ:

- وتقهقه أيضاً أيها السافل؟ سأشقّ رأسك بأكبر حجر في العالم يا ابن القحبة.

تفاديت حجره بصعوبة:

- أنت فاشل ليس فقط في مهنة السكليس بل حتى في التّنشين يا ابن سليمة العدوية.

التقط حجرا آخر أضخم وقال:

- حسناً سأعلمك كيف يكون التنشين يا ابن العربي الفرناطشي...

في المساء كانت السهرة على حساب رشيد، فقد سبقنا إلى تدبير مصروف أكبر عبر ما هو أكبر من السطو بالسكاكين على بنات مصانع النسيج. كان يملك حزمة كبيرة من المال لا نعرف من أين دبرها، أغرانا بشكلها.ورائحتها وهو يمررها قرب أنفينا قبل أن يعيدها إلى جيبه. قال لنا رافعاً يديه معاً إلى أعلى كمنتصر:

- هذا الأسبوع بكامله سكركم وحشيشكم وأكلكم وشربكم وعربدتكم على حسابي أيها الأنذال. سنسكر حتى يظهر محمد الخامس من جديد في القمر.

نظرنا إليه بدهشة فاغرين أفواهنا أنا وعبد الرحمن.

نهض وواصل كلامه مشيراً بسبابته بأبّهة إلى مكان غير محدد:

- وأكثر من ذلك أدعوكما إلى زيارة أكواخ القوادات هذه الليلة على حسابي، كونا فقط رجلين قادرين على إشباع عطش الهاربات الجديدات حتى لا يسخرن منا ومن فحولتنا.

قمنا عبد الرحمن وأنا مباشرة بعد أن سال لعابنا أمام عرض رشيد ونحن نتمايل. قال عبد الرحمن:

- خير البرّ عاجله، فلنسرع قبل أن تنام الهاربات.

قلت لرشيد وقد لعب السكر حقًّا بدماغي مادًّا سبابتي في اتجاه وجه عبد الرحمن:

- عبد الرحمان معه حق، إنه لا ينطق عن الهوى، فلنطرق حديد

الهاربات الناعم وهو ساخن.

نزلنا الأدراج خلف رشيد نتمايل كأننا سنسقط. قال رشيد:

– أنتما لا تقولان لا، أبداً حين يكون كل شيء بالمجان. حسناً سنرى كيف ستبليان أمام الهاربات، هيا... اتبعاني أيها الصرصاران الفاشلان في الطيران. مكتبة الرمحي أحمد

الهروب

مرّ عليّ داخل هذا السجن خمس سنوات وثلاثة أشهر دون أن أستطيع الهرب، وها إني أقبع من جديد داخل زنزانة انفرادية أخرى، لكني أعيش كل يوم جديد هنا بخفقان قلب شخص سيقدم على الهرب بعد دقيقة. من يفكر في الهرب يبدأ قلبه مباشرة بالخفقان داخل صدره. من يفكر بالهرب عوض الاستسلام يُعدّ هارباً حتى وهو داخل زنزانة. الهرب ليس هو أن تهرب فقط، بل بمجرد أن تقرر الهرب تعدّ هارباً حقيقياً يستحق شرف الهاربين. ستحتاج فقط إلى بعض الوقت الذي قد يكون يوماً أو سنة أو حتى حياتك كاملة، لتصل إلى هدفك. من يمت داخل سجن وهو يخطط للهرب ليس كمن يموت في سجن أو حتى في الحرية وهو لا ينوي الهرب. من يمت وهو يحاول أن يهرب من سجن صغير كهذا أو من سجن العالم والأرض الكبير كله فهو حرّ.

لقد قررت الهروب من هذا السجن، كما قررت قبل ذلك الهروب من ذلك الحي. أمي ماتت، وعبد الرحمن ورشيد قتلا، عبد الرحمن قتلته الشرطة، ورشيد قتلته عصابة الشعبة، ولم نصل ذلك اليوم إلى

عكراش، ولم نجن مالاً، ولم نعبر سور الأعراف الفاصل بين النار والجنة، ويمكن القول إن هذه الخمس سنوات التي قضيتها كاملة في هذا الحبس قضيتها كلها هارباً، فكل يوم أخطط للهروب من هنا، وقد فشلت في ذلك ست مرات على الأقل، الأمر الذي عقد الأمور أكثر، وصعّب هروبي أكثر حتى بدا أنه أصبح مستحيلاً، فالحراس ضاعفوا يقظتهم وحراستهم وعقابهم لي. لكن، بما أن أبواب السجن تفتح كل يوم وتغلق، وبما أن الوزغة تستطيع تسلق الأسوار بسهولة، فالهروب يظل ممكناً، ويظل حافزي الوحيد الذي يضخ دماء جديدة نقية في عروقي تمنحني القدرة والثبات على مقاومة هذا السجن وهذا الفناء المحيط بي.

الحياة هنا أيضاً مليئة بالحثالة. كل أفراد العصابات يصلون إلى هنا، لكن قانون السجن قانون آخر، وحساباته حسابات أخرى، فبعد خمس سنوات داخل السجن تعرف أكثر أنك يجب أن تبقى على قيد الحياة باستمرار، وأن تلك مهمة خطيرة باستمرار، سواء داخل الحي، أو داخل السجن، أو داخل زنزانة انفرادية آمنة كهذه، أو حتى داخل الجنة. كل شيء هنا على ما يرام تقريباً، فقد استطعت ضمان مكاني اللائق بين المساجين، مؤمّناً ظهري دائماً بجدار. إنهم في النهاية مجرد حثالة أرادوا تدبير بعض المصروف، أو عيش بعض لحظات المتعة رفقة فتاة بالقوة، أو قتلوا شخصاً أو أشخاصاً وقفوا في طريقهم، أو فقط دافعوا عن أنفسهم ضد قتلة آخرين ففتحوا عيونهم داخل زنازين مطبقة عليهم إلى أجل مسمى أو إلى الأبد. لكنهم حثالة دون شك، وقد بت الآن أعتقد أكثر أن كل البشر دون استثناء حثالة،

ليس أنا فقط ورشيد وعبد الرحمن وعصابة صحراوة وعصابة الشعبة وباقي عصابات حيّنا. إذ كيف تعتقد ذلك حيال نفسك وتفهمه جيداً وتعيه وبعدها تعتقد عكسه إزاء الآخرين؟

البشر مجرد حثالة، هذه هي الحقيقة، وهم يثبتون ذلك كل يوم باستمرار، كل مطلع شمس، وكل لحظة. إن لم تثبت لك نفسك ذلك سيثبته لك أقرب المقربين إليك، ثم سيثبته لك العالم قاطبة. عليك أن تنتظر قليلاً فقط لتتأكد أنك حثالة، وأن كل المحيطين بك حثالة. العالم مليء بالمهندسين والأطباء والمخترعين والحكماء والفقهاء والقساوسة والطيبين والمسالمين والخيرين والمصلين والأزهار. لكن العالم يذهب منذ الأزل في اتجاه الهاوية وكل يوم يقترب منها أكثر وذلك هو مصيره الحقيقي الذي يجب أن يتجه في اتجاهه. لا أحمل أبداً داخلي أيّ ندم أو أسف على ذلك أو على أي شيء. كل ما يهمني هنا هو تدبير طعامي وسجائري وبعض الحشيش وحماية نفسي من طعنة غادرة، وكل ذلك فقط من أجل البقاء ومن أجل بعض المتعة ومن أجل الهرب.

أشياء كثيرة تحدث في العالم باستمرار، أغلبها محزن ومؤلم. كل تلك الأخبار تصل كاملة حتى عقر زنازيننا، وقد كانت تصلني أيضاً داخل الحي عبر الراديو ولاحقاً عبر التلفزيونات أو عبر الفضوليين. كان دائماً هناك زلزال، وكانت هناك حرب دائماً، انقلابات وثورات وقلاقل وقتلى وجرحى ومعطوبون ولاجئون ونازحون، في كل يوم، وفي كل زمان ومكان. لكن ذلك لم يكن يعني لي أيّ شيء أبداً، لم يكن يحزنني أو يؤلمني، ولم أكن أبداً متعاطفاً مع أشياء كهذه أو

مهتماً، بل بالضبط لم أكن أفهم شيئاً منها، ولم أكن أعرف لماذا كان عليها كل مرة أن تقطع آلاف الأميال بسرعة البرق وأن تخترق كل الحواجز والأبواب كي تصل إلى سمعي. لقد كنت دائماً منشغلا بحياتي، بمشاكلي الخاصة، بضرس يؤلمني حين يتحدثون عن زلزال، بثمن سيجارة حين يحدثونني عن انقلاب في بلد من البلدان، وبالهرب من الحثالة إلى جنة الأقوياء حين يحدثونني عن أن الحرب قد بدأت في مكان ما. الزلزال لم يكن ليُهدئ أبداً ألم أضراسي، والانقلابات لم تمنحني أبداً ثمن سيجارة حين أضطر إلى تسوّلها أو إلى سلبها، والحروب لم تساعدني أبداً على الهروب، بل أكثر من ذلك ها أنذا الآن قد وصلت إلى هذا الحبس، دون أن تستطيع أخبار العالم تغيير شيء أبداً من هذا المصير. لقد عاشت أمي حياتها كاملة تشعر بالغبن، ولم تستطع أبداً يوماً واحداً كل اختراعات العالم، وكل هندسياته، وكل تقدمه التكنولوجي، وكل استقراره ونمائه وقوانينه وتحضره وأديانه وصلواته، وكل حروبه المستمرة وهمجيته وكوارثه وزلازله وبراكينه وأعاصيره وأحيائه وموتاه، أن تمسح، يوماً واحداً فقط، ذلك الغبن والقهر عن وجه أمي ونظراتها وأعماقها. لقد كنت أنا نفسي عاجزاً عن ذلك. كثيرون استطاعوا العيش داخل ذلك الحي مثلما عشت، لم ينته بهم المطاف بالضرورة إلى هذا الحبس، بل بعضهم أصبح مهندساً أو طبيباً أو شرطياً أو حتى وزيراً. لقد غادروا الحي دون أن يصبحوا أعضاء في عصابة صحراوة أو عصابة براريك القرعة أو عصابة الشعبة أو حشاشين ومنحرفين. عكس ذلك، أصبحوا أعضاء في عصابة الدولة.

تنكروا للحي ولماضيهم، إذ لا يمكنك أبداً أن تفتخر برأسك تلمس السحاب إذا كانت قدماك غائصتان في الوحل، وذلك ما كنت سأفعله أنا أيضاً لو أني اشتريت باركو لصيد السمك وسكنت في حي الرياض.

لقد هربوا بطريقتهم دون أن يعرفوا أن سبب الوحل هو ذاك السحاب. أنا أيضاً سأهرب بطريقتي. إما أن أصير فرداً في عصابة الدولة، وإما أن تصير الدولة وكل دول العالم أعدائي. إما أن تمنحني الدولة ذلك الشرف، شرف متعاون ولص مرخص له يأخذ أتعابه كل شهر أو كل يوم أو مرة واحدة في العمر، وإما فأنا الذي سأمنح للدولة شرف عداوتي حتى النهاية.

لا أعرف نظاماً ولا قانوناً ولا دولاً ولا حكاماً ولا وزراء ولا أحزاباً ولا أساتذة ولا فقهاء ولا قساوسة، كل ما أعرفه هو مالي فوق الطاولة، مقابل كل ما فقدت ومقابل ما أنا مستعد لفقدانه. مالي الذي لن أتسوله، بل سأصل إليه بالقوة، حتى آخر خفقة في قلبي، أو أصل إلى حيث وصل رشيد وعبد الرحمن، في العالم الآخر، حيث سأجد أنهما قد وفرا الآن مصروفاً كبيراً، بحكم أنهما سبقاني إلى هناك بسنوات كثيرة، وأنهما ينتظرانني بشوق كبير، وينتظران أن أوصل إليهما أخبار الحي. سنسكر هناك كل يوم حتى الثمالة، ونزور أكواخ القوادات، ونقهقه في السماء قهقهاتنا المعتادة. قد نتزوج أيضاً ببعض الحوريات وننجب أطفالاً دون أن نشيخ، فالوقت سيكفينا هناك إلى الأبد لفعل كل شيء، ولن تستطيع الشرطة هناك قتلنا، إذ لا يمكن أبداً قتل ميت.

هناك، على الأقل، ستنجح خطتنا بسهولة في الهرب من جحيم الحثالة إلى جنة النبلاء.

لقد مرت عليّ خمس سنوات كاملة داخل هذا السجن، فشلت في الهرب، لكنني لم أفشل بعد في الإصرار على الهرب، ولن أفشل في ذلك أبداً. لقد ولدت لأهرب.

قانون السجن ليس هو قانون الحي، وحكمه ليست هي حكم الكتب المدرسية وكتب خالي، بل ما عليك أن تجيد قراءته جيداً هنا هو الأوشام على الأذرع والصدور والظهور، وعلى جدران الزنازين، وملامح الحثالة ونظراتهم واستعدادهم الدائم للغدر والخيانة. إنهم خلاصة حقيقة لحقيقة البشر والعالم أمامك. تنقلت من عنبر إلى آخر، ومن زنزانة انفرادية إلى أخرى. مئات الوجوه المسيخة أراها كل يوم، أحاصرها وتحاصرني، نتبادل الغدر والخيانات واللكمات والوشايات والطعنات كما نتقاسم أيضاً السجائر والحشيش والأكل والذكريات. كثيرون غادروا السجن بعد انتهاء مدة حبسهم وأكثر منهم التحقوا به من جديد أو لأول مرة. كسبت أصدقاء جدداً وأعداء جدداً. نقف كالضواري في انتظار ضحايا جدد، زوار مهذبين لم يعرفوا قطّ لماذا وصلوا إلى السجن تصل إليهم قفف مليئة من الخارج.

عبد الرزاق أيضاً وصل إلى هنا قبل سنة ونصف. لقد قتلنا أمه وأخاه وأفراداً آخرين من عائلته، كما أحرق أكواخنا ووشى بنا وقتل رشيد. لا يمكن أبداً أن نصير أصدقاء، بل أعداء إلى الأبد. حين رأيته أول مرة في ساحة السجن فار دمي، شعرت برغبة ملحّة في مهاجمته،

أحسست أنه كان السبب في كل شيء، كان ينظر إليّ بنفس الحنق والضغينة وقد غطت ذقنٌ وجهه القبيح فأصبح أكثر قبحاً. مرّ على ذلك أسبوعان، نقلوه إلى عنبري. كنت يائساً وكان يائساً. بمجرد ما أغلقوا الباب وذهبوا نهضت. شتمته. قال:

– إن كنت رجلاً دعنا نتواجه رجلاً لرجل، دون تدخل أحد.

تقدمت في اتجاهه. اشتبكنا ككلبين مسعورين. مرّ وقت طويل على قتالنا، دقائق كثيرة بدت كأنها دهر، كما أنها بدت في نفس الوقت كما لو أنها لحظة خاطفة. لكمني في وجهي مراراً ولكمته في وجهه مراراً. سال دم من فمي وأنفي وسال دم من فمه وأنفه. كنا محتاجين لتفريغ كل الغلّ الذي بدواخلنا. كنت أضرب بأكثر من قوتي وطاقتي لأقتله لا لأهزمه وكان يفعل المثل. تبادلنا اللكمات والركل والعض والدفع والنطح بالرأس حتى أخذ منا الألم والعياء والعرق والدم مأخذه. كسر بعض أسناني وكسرت بعض أسنانه. أصبحت لكماتنا مضحكة وبطيئة لكننا واصلنا. كان العنبر يهتزّ كاملاً بالصراخ والهتاف والتشجيعات والقهقهات. جاء الحراس وفي أيديهم هراوات، فتحوا الباب. كان وجهانا ينزفان وقوانا خائرة. بعد ساعة كنت داخل زنزانة انفرادية وعبد الرزاق داخل زنزانة انفرادية أخرى.

أخذوني إلى عنبر آخر دون أن أعرف ماذا حصل مع عبد الرزاق. عرفت لاحقاً أنه نقل إلى جناح آخر.

بعد سبعة أشهر على ذلك اصطدمنا ببعضنا من جديد. لكن ليس للمواجهة هذه المرة، بل لنصير أصدقاء، لقد كان ابن حيي،

يعرفني جيداً وأعرفه جيداً، ويفهمني جيداً وأفهمه جيداً، ولم أربح من مواجهته سوى سنّين مكسورين. سأحتاج إليه داخل السجن وسيحتاج إليّ، خصوصا للهرب. بعد تلك المواجهة وتلك الشهور وجدنا أننا أصبحنا بديهياً مستعدين لمصادقة بعضنا، رغم ما شاب تلك الصداقة من حذر. فكرت أن أترك حساباتي جانباً حتى نخرج من هنا، فقد كان الهرب أهم عندي من تصفية الحسابات. لقد مات رشيد وعبد الرحمن، وقَتْلُ عبد الرزاق الآن لن يعيدهما، بل سيزيد الأمر سوءاً، وأيضاً قتله لي سيكون غباءً كبيراً مني، فعوض أن أواجه هذا السجن للهروب منه أسقط من جديد في أوحال الحثالة اللاصقة بأقدامي وروحي كالغراء.

أوحيت له بفكرة الهرب، وجدته مستعداً لها أكثر مني، فقد حكم عليه بالمؤبد. كنا نلتقي فقط في الساحة، كان في عنبر وكنت في عنبر آخر. بذلنا كامل جهدنا لنصير في عنبر واحد. بعد أسابيع نجحنا في ذلك. أصبحنا نتقاسم نفس العنبر. لم أكن أفشي أمر الهرب لأحد منذ دخلت، فقد كان الجميع وُشاة، وكان الخوف من السجناء في مسألة كالهرب أكبر من الخوف من الحراس. كنت أخطط للهرب وحدي، وأفشل وحدي، وأصرّ من جديد على الهرب وحدي. أصبحنا نفكر في الهرب معاً، عبد الرزاق وأنا، وندبر أمورنا داخل السجن معاً. أحمي ظهره ويحمي ظهري. نقتسم السجائر والحشيش والأكل. أصبح بمثابة رشيد أو عبد الرحمن تقريباً بالنسبة لي. فهمت أني لا أستطيع أبداً أن أفهم أو أن أتفاهم سوى مع أبناء حيي. أصبحت أحس بامتنان لذلك الحي وبنعمته عليّ، وأنه ملاذي وملجئي الأخير ليس

للسكن فيه والعيش والبقاء فقط، بل للهرب منه ومن هذا السجن أيضاً.

كل خطط الهرب بدت لنا غير مقنعة وفاشلة، لكننا بقينا نفكر ونخمن. كل مرة يقترح عليّ فكرة غبية أو أقترح عليه فكرة أغبى. رسونا أخيراً على فكرة بدت مقنعة أكثر، أن نحصل على بعض البنزين بأي طريقة ونشعل النار في السجن. كانت فكرة متهورة حمقاء أغبى من كل الأفكار الأخرى، لكنها صائبة. هناك شاحنات كثيرة تزور السجن بخزانات ممتلئة بالبنزين، إضافة إلى ورشة السجن التي لا بد أنها لا تخلو من خزانات بنزين. كنا سنحتاج لتنفيذ الخطة إلى تجييش عدد كاف من السجناء لينجح الأمر. لا بد من حريق كبير ومفاجئ يخلط أوراق الحراس وحساباتهم. سنحتاج إلى قِرَبٍ أو ما شابه لملئها بالبنزين، وإلى عدد لا بأس به من السجناء، وإلى توقيت دقيق. سنخبئ بعض البنزين على مدى أسبوع، بينما يكون يوم التنفيذ هو يوم الهجوم على الخزانات وهي ممتلئة.

بدت الخطة مضببة للغاية وخرقاء وفاشلة، لكنها بدت أيضاً ذات جاذبية كافية، خصوصاً لي ولعبد الرزاق، فقد كنا مدربين سلفاً على إضرام الحرائق. بدأنا بالتنفيذ. أولاً كان علينا تعبئة أكثر من عشرة سجناء، وكان ذلك أصعب جزء في الخطة، أصعب حتى من إيجاد القرب والبنزين ومن الهرب. نجحنا في تعبئة ثلاثة سجناء فقط بعد أن أفشينا لهم سرّ خطة أخرى وهمية، أننا سنهاجم الحراس في جماعة كبيرة. كان ذلك فقط لنختبر ولاءهم. كانوا أكثر تعطشاً منا للهرب، لم يخبروا الحراس بشيء.

مرّت شهور طويلة. حكم على عبد الرزاق بالمؤبد من جديد بعد الاستئناف. لم يمرّ على ذلك عشرة أيام حتى جاؤوا لترحيله إلى سجن آخر.

فشل نصف الخطة تقريباً. لقد ذهب عبد الرزاق إلى الأبد قبل أسبوعين تقريباً، ووصلت أنا من جديد إلى هذه الزنزانة الانفرادية منذ يومين عقاباً لي على حيازة شريحة تحوي أربعة أقراص قرقوبي مهلوسة، وبقي معي ثلاثة سجناء فقط مستعدين لمهاجمة الحراس. تأملت الفكرة طيلة الليلة السابقة فوجدت أنها فكرة أفضل من فكرة البنزين. يكون دائماً عدد الحراس أقل بكثير من عدد المساجين. أحياناً يكون هناك عشرون أو ثلاثون حارسا أو عشرة فقط مقابل ثلاثة أو أربعة آلاف سجين. لكن السجين لا يفكر في ذلك دائماً، لا يقارن عدد السجناء بعدد الحراس أبداً، بل يقارن عدد الحراس فقط بعدد نفسه، سجين واحد مقابل ثلاثين حارساً.

ييأس بسرعة فيستسلم كما يستسلم الجميع.

يبدو أيضاً أنه من المستحيل أن تقنع آلاف السجناء بأكملهم بهذه الخطة، رغم أنها لصالحهم جميعاً وأكثر من ذلك تبدو مضمونة النتائج. فكما يحدث في الخارج، يحدث أيضاً هنا، ثلة صغيرة من الشرطة تستطيع حفظ الأمن والنظام داخل حيّ كامل كحيّنا والسيطرة عليه. وأيضاً، ثلة صغيرة من رجال السياسة تستطيع السيطرة على شعب كامل عشرات السنوات دون مشاكل كبيرة.

هذه هي الخطة إذن. سنهاجم الحراس.

ليس لديّ ما أخسره، سأحتاج فقط إلى أن ينضم إلينا بعض الرفاق

كما كان يسميهم خالي، ثم مزيد من الرفاق، حتى يفوق عددنا عدد الحراس بقليل. بعدها مباشرة سنهاجمهم وننال منهم ونهرب.

سأهرب أولاً إلى الولجة حيث كان يختبئ سليمان، أو إلى أرض ميساوة حيث تحوم روح عبد الرحمن، أو إلى عكراش، حتى تهدأ الأمور، بعد ذلك سأغادر كل ذلك القيء إلى الأبد.

كل شيء واضح ومرتب في دماغي منذ الآن، إنها خطة واضحة ومضمونة النتائج، ولا تحتاج إلى كثير من الذكاء والتخطيط والعبقرية. لكنها ستنجح دون أدنى شك.

لن أستعجل التنفيذ، بل سآخذ وقتاً كافياً لتعبئة السجناء، ودراسة أعداد الحراس، والفترات التي تقل فيها أعدادهم كعيد الفطر أو عيد الأضحى. سنكون عندها مستعدين كل الاستعداد، جاهزين، متأهبين، لمباركة العيد لهم.

آمل فقط أن لا يخذلني هذه المرة رفاق السجن، مثلما خذل خالي رفاق الجامعة. وإلا فسأضطر حينها للتخطيط من جديد. حفر نفق أو تسلق الأسوار أو التحول إلى هواء والتسرب من الثقوب والشقوق.

أنا حي فقط لأهرب.

إنها مسألة وقت فقط.

برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء الدورة الثانية، يمكن التأكيد أنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.

'يكتسب فرادته من انحيازه للجوهر...'

القدس العربي

كان مراد صغيراً حين اختطفوا خاله وأعدموه. لم يكن مجرماً ولا سوابق قضائية له. كل ما خلّفه كرتونة مليئة بالكتب. قرأها كلها ليكتشف أن خاله كان عضواً في حركة ثورية أرادت قلب موازين الصراع الطبقي.

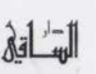
حاول أن يواصل مسيرة خاله على طريقته، أن ينتقل إلى طبقة النبلاء من دون حزب ولا منشورات سرّية أو تظاهرات. توقف عن الدراسة وبدأ يدخن الحشيش ويمارس السطو المسلح مع ابنَي حيّه المعدم، عبد الرحمن ورشيد، اللذين شكّل معهما عصابة خاضت صراعات دموية مع سائر العصابات في حيّهم البائس...

غير أن شجرة الشوك، في نهاية المطاف، لا تنبت سوى الأشواك.

محمد بنميلود كاتب مغربي. يكتب الشعر والقصة والرواية والسيناريو.











www.daralsaqi.com



www.arabculturefund.org